

سلسله أركان الإيمان



الإيمان بالفكر

الذكور علي محمد محمد الصلابي



منندى اقرأ الثقافي

www.igra.afilamontada.com

دار المعرفة

بيروت - لبنان

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.afhamontada.com

الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright © All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-85-249-9

الطبعة الثانية
1432 هـ - 2011 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجawi • هاتف: ٨٢٤٣٣٢، ٨٢٤٣٠١
فاكس: ٨٢٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإيمان بالقدر

الذكور علي محمد محمد الصلابي

دار المعرفة

بهرت - لبنان

الإيمان بالقدر

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2].

د. علي محمد محمد الصلابي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث

عن حقيقة الإيمان بالقدر

أهدي هذا الكتاب

سائلًا المولى ﷺ بأسمائه الحسنى

وصفاته العظيمة أن يكون خالصاً لوجهه الكريم

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ

فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ

[الكهف: 110].

—

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيْنَهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي فَسَّخَلُوكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 81] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: 70، 71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك
لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد
الرضى.

أما بعد: هذا الكتاب يتحدث عن القدر وقد سرت على هدي

القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة في بيان هذا الركن من الإيمان، وابتعدت كل البعد عن مناهج الفرق الكلامية والمذاهب الفلسفية وحرصت على أن أبين ما كان عليه رسول الله وأصحابه من صفاء ووضوح في أصول الإيمان. وهذا الكتاب يستهدف مخاطبة العقول، وإحياء القلوب وتحريك الفطر، وربط الناس بالخالق العظيم وبيان ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل وما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل فهو أسمى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها. فالعدل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

ولقد وقفت على تجارب علماء كبار ممن خاضوا في بحر علم الكلام وكادوا أن يهلكوا لولا رحمة الله بهم وقدموا لنا خلاصة تجاربهم المبررة لكي نستفيد منها الدروس والعبر، وحثوا الناس على التمسك بالكتاب والسنة وهدى الصحابة الكرام ومن هؤلاء:

1 - أبو الحسن الأشعري: قال: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة التابعين، وأئمة الحديث ونحن بذلك معتمدون⁽¹⁾.

(1) الإبانة لأبي الحسن الأشعري، ص: 17.

2 - أبو حامد الغزالي: قال: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان⁽¹⁾.

3 - إمام الحرمين الجويني: قال: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي⁽²⁾.

4 - الفخر الرازي: قال:

نهاية إقدام العقول عقاب وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي
عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في
الإثبات: ﴿الْزَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: 5] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10] وأقرأ في النفي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

(1) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي، ص: 89-90.

(2) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصلافي، ص: 159.

[طه: 110] ومن جَرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي⁽¹⁾.

فهذا الكتاب يتحدث عن القدر بعيداً عن صخب الأهواء وأغشية الشبهات وضجيج المجادلات، فقد طالعت ركاماً هائلاً من الميراث التاريخي في هذا الباب فرأيت من الفائدة تركها والعودة إلى عصر النبوة والصحابة للوصول إلى يقين ذلك الجيل المبارك وطمانينته والذي نهل من المعين الصافي الذي تكفل الله بحفظه والمتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

وقال رسول الله ﷺ: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»⁽²⁾.

وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»⁽³⁾.

ففي هذا الكتاب كان الحديث في المبحث الأول: عن القضاء والقدر في اللغة والشرع والفرق بين القضاء والقدر، وأدلة القرآن على وجوب الإيمان به، وحديث القصص القرآني عنه، كقصة نوح وإبراهيم، ويوسف، وموسى وزكريا ومريم، وصاحب الجنيتين، والأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان به والوصايا النبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر، ونهي الرسول ﷺ عن الخوض فيه، وحديث الصحابة عنه.

(1) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، ص: 159.

(2) رواه مالك في الموطأ بلاغاً في ك القدر (2/ 898).

(3) مسلم، ك الأقضية (2/ 1343. 1344).

وفي المبحث الثاني: كان التفصيل عن مراتب القدر، كالعلم، والكتابة، والإرادة والمشيئة، والخلق.

وتضمن المبحث الثالث: التقادير الخمس كالتقدير الأزلي، وتقدير يوم الميثاق، والعمرى والحولى، واليومي، وتضمن أيضاً: أنواع الإرادة، الكونية والشرعية والفرق بينهما.

في المبحث الرابع: كان الحديث عن لا حول ولا قوة إلا بالله، وعن فضلها ومعناها وما تضمنته من معان عقدية عظيمة، كالإقرار بالتوحيد، والتوكل على الله وتفويض الأمور إليه، كما كان الحديث في هذا المبحث عن الاحتجاج بالقدر على المعاصي.

وفي المبحث الخامس: تكلمت عن الهداية والإضلال ومرتبات الهداية، كالهداية العامة، وهداية الإرشاد والدعوة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام، والهداية إلى طريق الجنة. كما أشرت لأسباب الهداية التي ذكرت في القرآن كالمحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية، واستعمال السمع والبصر والعقل، والعلم، والإيمان، والاهتداء، والدعاء، والاعتصام بالله، والاتباع والطاعة، والخشية والإنابة، والبراءة من الكافرين، والجهاد. كما أشرت إلى الضلال ومرتباته، وحرية العبد في اختياره للهدى والضلال، كما لخصت أهم أسباب الضلال، كعدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكير في آيات الله، والذنوب والمعاصي، واتباع الشيطان، والجهل واتباع الظن، والجدال في الله وآياته بغير علم، والغفلة، والتعصب بالباطل، والتقليد المذموم، والشك والريب، والجحود، والتأبي والعناد والتعنت، والكبر، وحب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً، واتباع الهوى، والاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين، والكفر، والغلو في

الأنبياء والصالحين، وصحبة السوء والبيئة الفاسدة، والتشبه بالضالين، والابتداع في الدين.

وفي المبحث السادس: تكلمت عن سنة الله في الأخذ بالأسباب وأشارت إلى الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، كالأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله ﷻ، كالدستور العادل والمنهج التربوي للشعوب، والاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير وفقهه في إحياء الشعوب وأخلاقه القيادية، وكالأسباب التي اتخذها سليمان، كفهقه في إدارة الدولة من دوام المباشرة لأحوال الرعية، وعمل قوانين تضبط الأمور، والاهتمام بالأجهزة الأمنية، وبنصر دعوة التوحيد والترفع عن حطام الدنيا والمقدرة على اتخاذ القرار الصحيح، والاستفادة من المهارات والمواهب، كما كان الحديث عن الأسباب والتوكل وبيان أن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وأهمية التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب وعن العلاقة بين الأسباب والمسببات، وتأثير السبب في المسبب، وشرح حديث رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»، وعلاقة الجزاء الأخروي بالأسباب، والحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة، ومراعاة صورة الأسباب في الخوارق، وتهيئة الأسباب لوقوع مراد الله ﷻ، وكون الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتقاء الموانع، وبيان أن إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم، وشرح مقولة منازعة الأقدار بالأقدار، والعلاقة بين الدعاء والقدر.

وفي المبحث السابع: كان الحديث عن العدل الإلهي وسنة الله

في الجزء بجنس العمل، وأن الأصل في العقاب المماثلة، وصور من الجزء بجنس العمل في الدنيا، كالاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا، وتسليط الظالم على مثله، واستئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه، ونصر الله منوط بنصرته للدين والحق، وسلب النعمة عمن منعها مستحقيها، وتيسير الله لمن يسر على عباده، وكان الحديث عن الجزء بجنس العمل في الآخرة، كمعاملة أهل الفضل بالفضل، وترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه، والتهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا، كما كان الحديث عن الجزء بجنس العمل بين العباد.

وفي المبحث الثامن: تحدثت عن الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق، فكان الحديث عن الحكمة في أفعال الله وشرعه، وفعل الأصلح، ومعنى الاستطاعة وتكليف بما لا يطاق.

وفي المبحث التاسع: تكلمت عن سنة الله في الآجال، وقدرة الله وثمار الإيمان بالقدر والتي كان من أهمها؛ الإقدام على عظام الأمور، والقضاء على الكسل والتواكل والثبات في مواجهة الطغيان، والصبر عند نزول المصائب والعز في طلب الحوائج والسكينة وراحة النفس وسكون القلب، والخوف والحذر من الله، والخلاص من الشرك والقضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات، والاستعانة بالله، والاعتماد على الله وحده، والاعتراف بفضله، والاستغناء بالخالق عن الخلق، والاعتراف بالذنب والمسارة للمغفرة والتوبة، ثم كانت الخاتمة.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب 1/3/2010م الموافق 15/ربيع الأول/1431هـ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه بأسمائه

الحسنى، وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً وعباده نافعا،
ويشرح صدور العباد للانتفاع به وبارك فيه بمئه وكرمه وجوده، وأن
يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع،
ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى
عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه بالدعاء في ظهر الغيب.

قال تعالى: ﴿رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَصْلُوحِينَ﴾
[النمل: 19].

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا
يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لِمَنْ بَعْدَهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٥﴾ وَمَسْكُومٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٦﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: 180 - 182].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك
وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول
هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر
الغيب بالإخلاص لله والصواب لخدمة دينه العظيم

Mail: info@alsallaby.com
Website: www.alsallaby.com

المبحث الأول

القضاء والقدر في اللغة والشرع

أولاً، القضاء والقدر لغة وشرعاً،

1 - معنى القضاء لغة: إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته⁽¹⁾، وقال ابن الأثير في النهاية: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتامه. فمعنى القضاء في اللغة هو إحكام الشيء، وإتمام الأمر، وهذا هو معنى القضاء، وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر⁽²⁾.

وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيراً في القرآن الكريم، وكل معانيه التي قد تأتي متداخلة أحياناً ترجع إلى الأصل السابق، فمن المعاني التي ورد بها:

- معنى الأمر: قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمر ﷻ بعبادته وحده لا شريك له⁽³⁾.

- معنى الإنهاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ﴾

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (5 / 99).

(2) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص: 422.

(3) تفسير الطبري (15 / 62)، القضاء والقدر د. محمود، ص: 34.

[الجبر: 66] أي: تقدمنا إليه وأنهي⁽¹⁾.

- معنى الحكم: قال تعالى: ﴿فَأَقِصْ مَا أَنْتَ قَائِلٌ﴾ [طه: 72]

أي: اصنع واحكم وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك⁽²⁾.

- معنى الفراغ: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي

يَوْمَيْنِ﴾ [فُضِّلَتْ: 12] أي: فرغ من تسويتهن سبع سماوات في

يومين⁽³⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [الْقَصص: 29]

أي: فرغ من الأجل الأوفى والأتم⁽⁴⁾.

- معنى الأداء: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾

[البَقَرَة: 200] أي: أدبتموها وفرغتم منها⁽⁵⁾.

- معنى الإعلام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

فِي الْكِتَابِ﴾ [الْإِسْرَاء: 4] أي: تقدمنا وأخبرنا بني إسرائيل في

الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين⁽⁶⁾.

- معنى الموت: يقال: ضربه ف قضى عليه، أي: قتله⁽⁷⁾، قال

تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الْقَصص: 15] أي: مات⁽⁸⁾.

(1) زاد المسير لابن الجوزي (4 / 407)، القضاء والقدر، ص: 43.

(2) تفسير ابن كثير (5 / 298)، القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 43 فيه تفصيل.

(3) تفسير الطبري (24 / 99)، ابن كثير (7 / 156).

(4) معالم التنزيل للبغوي (5 / 172).

(5) تفسير الطبري (2 / 295)، القضاء والقدر للمحمود، ص: 35.

(6) تفسير الطبري (15 / 20، 21).

(7) لسان العرب (5 / 187)، القضاء والقدر للمحمود، ص: 35.

(8) القضاء والقدر للمحمود، ص: 35.

- وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة⁽¹⁾، ومن خلال عرض هذه المعاني يتبين ما بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي من رابط قوي، فتقدير الله للأمور وكتابته لذلك، وكونها تجري بحكمة ودقة على حسب ما أَرادها سبحانه وقضاها كل هذه المعاني يوحى بها المعنى اللغوي بمختلف معانيه الواردة⁽²⁾.

2 - القدر لغة: فالقاف والdal والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته⁽³⁾. ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضاً ومن ذلك حديث الاستخارة «فأَقْدُرْهُ وَيَسِّرْهُ لِي»⁽⁴⁾.

والقَدَر بتحريك الدال أو تسكينها معناه الطاقة قال تعالى: ﴿وَمَعَهُنَّ عَلَى الْمَوْجِ قَدَرٌ﴾ [البقرة: 236]: طاقته.

ويأتي أيضاً القدر بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾ [الفجر: 16]. يعني فضيق عليه، ومنه قوله تعالى في حق نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87] أي: لن نضيق عليه، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس عليه السلام شك في قدرة الله، كلا⁽⁵⁾.

وقد رت الشيء أقدره من التقدير، ومنه الحديث: «فإن ضم

(1) الصحاح للجوهري (6 / 2463)، تاج العروس (10 / 396).

(2) القضاء والقدر، ص: 36.

(3) الصحاح للجوهري (2 / 286)، معجم مقاييس اللغة (5 / 62).

(4) البخاري، ك التهجد رقم 1166.

(5) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان، ص: 40.

عليكم فأقدروا له»⁽¹⁾. أي قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوماً، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه بذلك على أن الشهر تسع وعشرون أم ثلاثون⁽²⁾.

وقدر كل شيء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدرأ إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط⁽³⁾.

ويتبين لنا من التعريف اللغوي للقضاء والقدر: أن رابطاً قوياً جداً بينهما وبين التأصيل اللغوي والشرعي كذلك⁽⁴⁾.

3. المعنى الشرعي للقضاء والقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه . سبحانه . أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة وكتابتها سبحانه لذلك ومشيتته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقها لها⁽⁵⁾.

ومراتب القدر أربع، كما هو ظاهر في التعريف:

ـ العلم.

ـ الكتابة.

(1) البخاري، ك الصوم رقم 1906.

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (4 / 23).

(3) ترتيب القاموس المحيط (3 / 570).

(4) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان، ص: 40.

(5) شفاء العليل لابن القيم، ص: 29 ، القضاء والقدر للمحمود، ص: 40.

- المشيئة .

- الخلق والتكوين⁽¹⁾ .

4 - الفرق بين القضاء والقدر :

من أهل العلم من قال: لا فرق بين القضاء والقدر، فكل منهما يدخل في معنى الآخر، فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر بمعنى: إذا أطلق التعريف على القضاء، فإنه يشمل القدر، وإذا أطلق التعريف على القدر فإنه يشمل القضاء .

والفرق قال آخرون: لا، هناك فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل .

أما القدر: فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدرت في الأزل، فالقضاء أشمل وأعم من القدر .

ومنهم من قال: بأن القدر: هو التقدير، والقضاء، هو التفصيل بمعنى: أن القدر: هو التقدير القديم الأزلي، والقضاء: هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها ﷻ⁽²⁾ .

فالقضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتماعا، ومترادفان إن افترقا، يعني: إذا افترقا اجتماعا، وإذا اجتمعا افترقا بمعنى: إذا ذكر القضاء والقدر معاً، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد، وإذا أفرد اللفظان صار

(1) القضاء والقدر، ص: 41، للمحمود.

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان، ص: 41.

لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر. فالتقدير: هو ما قدره الله ﷻ في الأزل أن يكون في خلقه التقدير، وعلى هذا يكون التقدير سابقاً على القضاء، وأما القضاء إذا ذكر مع القدر فكلاهما معنى واحد مشترك، ويرى الخطابي: أن القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه⁽¹⁾.

والله أعلم أنه لا فرق بين القضاء والقدر، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحاً لا دليل لديهم من السنة الصحيحة، لا سيما وقد اتفقوا جميعاً على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر⁽²⁾.

ثانياً، أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر:

وردت في كتاب الله تعالى آيات تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى، وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها ﷻ⁽³⁾.

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الْقَمَر: 49] قدر الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه.

2 - وقوله تعالى: ﴿سُئِنَّا اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ

(1) المسائل العقديّة التي حكى فيها الإجماع، ابن تيمية، ص: 810، معالم السنن (577 /).

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان، ص: 42.

(3) القضاء والقدر، محمود، ص: 50.

اللَّهُ قَدَرًا مَّقْدُونًا ﴿[الأحزاب: 38] . أي قضاء مقضياً، وحكماً مبنوتاً وهو كظل ظليل، وليل أليل، وروض أريض في قصد التأكيد⁽¹⁾ .

3 - وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ سَيْنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَكُونُ﴾ [طه: 40] ، أي أنه جاء موافقاً لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد⁽²⁾ .

4 - وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [١١] إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿١٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 21 - 23] . أي جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه وهو الرحم، مؤجلاً إلى قدر معلوم قد علمه الله ﷻ وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديرأ فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديرأ فنعم المقدرون له نحن على قراءتين⁽³⁾، والقراءة الثانية ﴿نَدَّرْنَا﴾ [الحجر: 60] بالتشديد توافق قوله تعالى: ﴿مِنْ نُّفُوسٍ خَلَقُوا فَقَدَرُوا﴾ [عبس: 19] .

5 - وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُوا تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2] : أي كل شيء مما سواه مخلوق مرهوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتديبره وتسخيره وتقديره⁽⁴⁾ .

6 - وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الزّعد: 8] أي: بأجل، كحفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً⁽⁵⁾ .

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، تفسير، صديق حسن خان (7 / 375).

(2) تفسير ابن كثير (5 / 287).

(3) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 51.

(4) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 314).

(5) المصدر نفسه (2 / 492).

7 - وقال تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] .

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] كما يشاء وكما يريد ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ نَحْنُ بِذَرْنَا بَيْنَكُمْ أَلَمُوتَ وَمَنْ نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: 60] أي: صرفناه بينكم ﴿وَمَنْ نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: 60] أي: وما نحن بعاجزين⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ قُوفٍهَا وَتَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ [فُضِّلَتْ: 10] .

- وقال تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدَرُوا فَعُدُّوا﴾ [عَبَسَ: 19] أي: قدر أجله ووزقه وعمله، شقي أو سعيد⁽³⁾.

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله قدر كل شيء.

ثالثاً، القصص القرآني والإيمان بالقدر:

كان جميع الأنبياء والرسل ومن تبعهم معتقدين بعقيدة التوحيد

(1) صحيح تفسير ابن كثير (2 / 547).

(2) المصدر نفسه (4 / 362).

(3) المصدر السابق نفسه (4 / 595).

الخالصة الصحيحة، كما أوحى إليهم ربهم تبارك وتعالى، والإيمان بصفات الله تعالى، ومنها: العلم والقدرة والإرادة والخلق كلها داخلة في التوحيد الذي هو أساس دين الإسلام، وتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء وغيرهم، وبين قولهم بالقدر، وبأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون⁽¹⁾.

1 - في قصة نوح عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: 32 . 34].

فهم قالوا لنوح عليه السلام مستعجلين: يا نوح قد جادلنا أي: حاجبتنا فأكثر من ذلك، ونحن لا نتبعك، فأتنا بما تعدنا من العذاب، فأجابهم نوح مبيناً أن الأمر كله بيد الله تعالى، فهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ثم بين نوح أيضاً أن نصحه لا ينفع إذا كان الله يريد إغواءهم، فإرادة الله غالبية، ومشيتته نافذة⁽²⁾.

2 - وفي قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل . عليه الصلاة والسلام . لما أراد ذبحه بأمر الله، يقول: ﴿وَقَلَّمَا بَلَغْ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتٍ أَذِيقُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَوْتُمْ قَالَ يَأْتِيَتِ أُفْعُلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾﴾ [الصافات: 102] .

(1) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 126.

(2) تفسير ابن كثير (4 / 251-252)، تفسير السعدي (3 / 422).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصفافات: 102] أي: بلغ أن ينصرف معه ويعينه⁽¹⁾، وفي هذا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، فرأى أبوه في المنام أن الله يأمره بذبحه، ورؤيا الأنبياء وحى، فقال الابن مستسلماً: ﴿يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، فأخبر أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله⁽²⁾. وهذا هو الشاهد.

3 - وفي قصة يوسف . عليه الصلاة والسلام . يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَافِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَافِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْمَلِكُ﴾ [يوسف: 100] .

﴿إِنَّ رَافِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره وقدره، إنه هو العليم بمصالح عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾: في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده⁽³⁾، فيوسف عليه السلام كان مؤمناً أن ما جرى ويجري له ولغيره إنما هو بقضاء الله وقدره⁽⁴⁾.

4 - وموسى . عليه الصلاة والسلام . ذكر الله عنه إيمانه بأن الهداية والإضلال بيد الله، وهما تحت مشيئته، فقال تعالى في

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص: 273.

(2) تفسير السعدي (6 / 389).

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص: 273.

(3) تفسير ابن كثير (4 / 336)، القضاء والقدر عبد الرحمن المحمود، ص: 127.

(4) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 127.

معروض قصته: ﴿وَإِذْ أَخَذَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمْقِنُوا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلَبِّكُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: 155] فقلوه: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: 155]: أي لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا من قبل هذا الوقت، قال موسى اعترافاً بالذنوب وتلفاً على ما فرط من قومه، أو المعنى: لو شئت أهلكتهم وإياي من قبل خروجنا حتى يعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني، وهذا على أن ﴿لَوْ﴾ [الأعراف: 155] للتمني. ثم قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: 155]: أي ما هو إلا اختبارك وامتحانك تضل بهما من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، فأنت وحدك لك الملك ولك الخلق والأمر⁽¹⁾، فقول موسى هذا يدل على تصديقه وإيمانه بالقدر⁽²⁾.

5 - وفي قصة موسى مع الشيخ الكبير حينما ورد ماء مدين يقول تعالى عن الشيخ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القَصص: 27] والشاهد قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [القَصص: 27] أي: حسن الصحبة والوفاء، أو الصلاح العام ويدخل فيه صلاح المعاملة من باب أولى، وقيد ذلك بمشيئة الله تفويضاً

(1) زاد المسير لابن الجوزي (3 / 268 - 269).

(2) القضاء والقدر للمحمود، ص: 128.

للأمر إلى توفيق الله ومعونته⁽¹⁾.

6. ويقول تعالى عن موسى . عليه الصلاة والسلام . والخضر
بعد أن بين له أنه لا يستطيع الصبر معه، فأجابه موسى كما قال الله:
﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69].

سأصبر بمشيئة الله ولكن هل الاستثناء شامل قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69] أولاً؟ قولان للمفسرين والأرجح شموله لهما⁽²⁾، قال في تفسير الجلالين ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69] أي: وغير عاصٍ ﴿لَكَ أَمْرًا﴾ تأمرني به، وقيد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم، وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألا يثقوا إلى أنفسهم طرفة عين⁽³⁾. فتعليق الأمر بمشيئة الله تعالى دليل على إيمان موسى بأن أي شيء لا يكون إلا إذا أَرَادَهُ الله وشاءه، وقصة موسى والخضر كلها في باب القدر، وقد وردت بتمامها في صحيح البخاري، وقال ﷺ: «يرحم الله موسى وددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما»⁽⁴⁾.

7. وبعد أن خسف الله بقارون داره يقول تعالى عن قومه:
﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُم بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَذَّبُنَا لَوْلَا

(1) فتح القدير للشوكاني (4 / 169).

(2) تفسير القرطبي (11 / 17)، القضاء والقدر للمحمود، ص: 129.

(3) تفسير الجلالين: حاشية الجمل الفتوحات الإلهية (3 / 37).

(4) البخاري، ك العلم، فتح الباري (1 / 317).

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨١﴾ [الْقَصَص: 82] .

فقوله ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ﴾ [الْقَصَص: 82] لبعض عبادہ ورضيقه على بعضهم فله الأمر، يفعل ما يشاء ﴿١﴾ .

8 - ويقول تعالى عن زكريا ومريم: ﴿فَلَقَّبَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمَ أَنَّى لَئِبٌ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] .

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] :
الراجح أنه من كلام مريم، وهو يفيد التقرير بأن الله قد يرزق عباده بغير حساب، وأن ذلك مرتبط بمشيئته سبحانه (2).

9 - وفي قصة الرجل صاحب الجنتين، يقول تعالى عن صاحبه أنه قال له وهو يحاوره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: 39] أي: هلا قلت عندما دخلتها: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 39] ، أي الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، فتد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه سبحانه، ولا تفتخر به لأنه ليس من عملك وصنعك ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39] أي: وهلا قلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39] ، معترفاً بأنها وما فيها بمشيئة الله . تعالى . إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها، وأنت عاجز عنها، وعن غيرها لولا معونة الله (3).

(1) تفسير السعدي (6 / 61)، القضاء والقدر، ص: 130.

(2) القضاء والقدر، د. عبد الرحمن المحمود، ص: 131.

(3) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان (5 / 454).

10 . والجن يذكر تعالى أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10] فهم بعد أن منعوا من استراق السمع جزموا أن الله أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10] ، فهم مؤمنون بأن الله له الإرادة المطلقة، وقد كانوا مؤدبين فقد أضافوا الخير إلى الله تعالى والشر حذفوا فاعله تأديباً⁽¹⁾.

إن الإيمان بالقدر داخل ضمنناً في الإيمان بالله، بل هو جزء حقيقي منه لأن معناه، الإيمان بإحاطة علم الله تعالى بكل شيء وشمول إرادته لكل ما يقع في الكون، ونفوذ قدرته في كل شيء. والإيمان بالقدر، الذي جاء به الإسلام هو إيمان بمقتضى الكمال الإلهي الذي تميزت به عقيدة الإسلام، وصححت به أوهام الفلسفات، وانحراف الديانات في شأن الألوهية، فليس الإله في الإسلام إلهاً معزولاً عما يجري في الكون لا يعلمه ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف كـ«إله أرسطو» الذي لا يعرف إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً، أو «إله أفلوطين» الذي لا يعلم ذاته نفسها وليس كـ«إله المجوس» الذي له نصف الكون يدبره ويتصرف فيه، وهو ما يتعلق بالخير والنور، أما النصف الآخر وهو ما يتصل بالشر والظلمة، فذلك من شأن إله آخر، فهما إلهان إذن: أحدهما إله الخير والنور، والآخر إله الشر والظلمة والحرب بينهما سجل حتى ينتصر إله الخير في النهاية وليس هو كـ«آلهة اليونان» التي تخبط في تصرفاتها خبط عشواء والتي تعيش في حرب مع البشر،

(1) تفسير ابن كثير (8/ 267)، القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 131.

حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباته للناس تمثله هازئاً بهم، متحدياً لهم، يطاردهم ويتجنى عليهم، ولهذا كثر الحديث في أدبهم عن قسوة القدر، وعن القدر الأعشى، والقدر الغاشم ونحو ذلك، وليس كـ«إله بني إسرائيل» الذي تصوره توراتهم المحرفة، وكتبهم واساطيرهم، غيوراً منتقماً مدمراً، متعصباً لشعب إسرائيل دون العالمين، خائفاً من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة، فيصبح كواحد من الآلهة، نادماً على ما يفعله في بعض الأحيان عاجزاً عن مقاومة الإنسان، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه⁽¹⁾، ليس هذا الذي تتصوره أو تصوره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام، إنما الإله في الإسلام هو مالك الملك، وصاحب الخلق والأمر، رب العالمين، هو خالق كل شيء عن قبضة قهره، ولا حي أو جماد عن دائرة سلطانه، يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو مع هذا بر كريم، عدل رحيم، عليم حكيم، لا يظلم أحداً، ولا يأخذ مخلوقاً بذنب غيره، ولا يعصيه أجر سعيه، فلا يخاف أحد عنده ظلماً ولا هضماً، والظلم: أن يعاقبه بما لم يفعل والهضم: أن يضيع أجر ما قد عمل، والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة ولا يضيع أجر حسنة، بل يضاعفها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

هذا هو الإله الذي يجري كل شيء في الكون بتقديره وتدبيره بعلمه ومشيئته ومقتضى حكمته، وعلى هذا الأساس كان إيمان السلف بالقدر من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان، فليس الإيمان بالقدر إيماناً بالبخت والمصادفات والعشوائية في الكون، كهؤلاء

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 10.

الذين ينقلون إلى العربية التغيرات اليونانية والغربية عن القدر فتراهم يقولون: القدر الأعمى، والقدر الأحق، والقدر الغاشم، وعبت الأقدار ونحوها، وهي ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون، إنما هو إيمان بإحاطة علم الله وعموم مشيئته وشمول قدرته، وربوبيته لكل ما في الكون وإن كل ما يحدث في الوجود إنما يتم بناء على ترتيب أو تصميم سابق، وتدبير قدير، وتقدير عزيز عليم⁽¹⁾.

رابعاً: الأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر:

دلت نصوص السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، ولكن نعرض لبعضها وسنبين البعض الآخر في الأدلة التفصيلية عند الحديث على مراتب القدر. ومن هذه الأحاديث:

1 - حديث جبريل المشهور برواياته المختلفة، فقد قال ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»⁽²⁾.

2 - حديث جابر بن عبد الله ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»⁽³⁾.

3 - حديث علي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 11.

(2) مسلم، ك الإيمان رقم 8.

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم 2439.

بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر⁽¹⁾.

فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ويؤمن بالموت: أي فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر وأن كل ما يجري بقدر الله - تعالى - وقضائه⁽²⁾، ونفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأمور يدل على وجوب الإيمان بها.

4 - حديث طاوس، قال: أدركت أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقول: كل شيء بقدر، قال وسمعت عبد الله بن عمر ؓ يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى المعجز والكيس أو الكيس والمعجز»⁽³⁾.

5 - وعن أبي هريرة ؓ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۖ إِنَّآ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ۚ﴾ [القمر: 48، 49]⁽⁴⁾.

6 - وقد ورد عن النبي ﷺ التحذير من التكذيب بالقدر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو الدرداء ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا

(1) صحيح الترمذي للالباني رقم 2246.

(2) تحفة الأحوذى للمباركفوري (3/ 201).

(3) مسلم، ك القدر رقم 2655.

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 675.

يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر»⁽¹⁾.

خامساً: وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء
والقدر؛

كان الرسول ﷺ مربياً ومزكياً لنفوس أصحابه، وهي المهمة التي شرفه الله سبحانه بها، وتتجلى هذه التزكية، بأوضح صورها من خلال هذه الوصايا الثلاثة التي تُعد بحق نماذج العلاج النبوي لأمراض النفوس وتدريبها عملياً على التسليم لقضاء الله وقدره والرضا به.

الوصية الأولى:

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽²⁾.

وفي هذا الحديث النبوي يبين الرسول ﷺ من أن من أراد نيل محبة الله ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه، وطلب القوة في العلم والجسم، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التي تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذي يحبه الله سبحانه،

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 158).

(2) مسلم، ك القدر رقم 2664.

ولكي يحظى المسلم بذلك فلا بد له من الأخذ بالوصايا النبوية الواردة في هذا الحديث: وهي أن يحرص على ما ينفعه ويطلب العون من الله سبحانه ولا يعجز، وأن يسلم أمره لله فيما قدر له فلا يسخط ولا يشتكي من المصائب ولا يدع للشيطان مدخلاً يقول: «لو أني فعلت كذا وكذا» فكلمة «لو» تجلب الحسرة والأسى، وتزيد اللوعة وتورث القلق والاضطراب، ولن يستطيع إعادة ما فات ولا إحياء من مات مهما تحسر، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة ولجسمه الأمراض والآلام ويتعرض لغضب الله، باعتراضه على قدره، فالعلاج العملي أن يقول: «قدر الله وما شاء فعل»، مُعلنًا استسلامه لأمر الله ورضاه بقضائه وأن يعود لسانه على هذا القول كلما ناله شيء يكرهه⁽¹⁾.

الوصية الثانية: دعاء الاستخارة:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ: «يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخبرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب».

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 160).

حيث كان، ثم أرضني به، ويسمي حاجته⁽¹⁾.

وهذه الوصية النبوية تعد تدريباً عملياً على توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر، وتسليمها لما يقدر الله، اعتقاداً بأن ذلك هو الأصلح، والأنفع للعبد، فإذا همّ المسلم بأمر من الأمور المباحة، من سفر أو زواج، أو تجارة أو غير ذلك فعليه أن يبادر إلى العمل بهذه الوصية النبوية، فيدعو بدعاء الاستخارة متذلاً أمام ربه، متواضعاً بين يديه، مستسلاً لأمره، راضياً بحكمه، داعياً أن يختار الله له ما فيه الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه شر، ثم يعزم على هذا الأمر، فإن انشرح صدره له، ويسر الله طريقه، وهو الخير الذي اختاره الله، وإن جاء الأمر على عكس ذلك، فعليه أن يفرح، لأن الله صرف عنه شراً واختار له ما يصلحه، ولو لم يدرك الحكمة فلتطمئن نفسه ولا يبقى متعلقاً بهذا الأمر، أو قلقاً من أجله، وبهذه الوصية النبوية، يدرّب المسلم نفسه عملياً على الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، ويجاهد نفسه على مخالفة هواها ويربّيها على الالتزام بأمر الله، لأن في ذلك صلاح دنياه وآخرته⁽²⁾.

روى الأعمش عن مسعود رضي الله عنه قال: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له، نظر إليه الله من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنني إن يسرته له أدخلته النار، قال: فيصرفه الله عنه، قال: فيقول: من أين ذهبت؟ وما هو إلا فضل الله سبحانه.

(1) البخاري، ك الدعوات باب دعاء الاستخارة (7 / 162).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 161).

ولذلك كان الرسول ﷺ يهتم كثيراً بدعاء الاستخارة ليعلمه لأصحابه، كما يعلمه السورة من القرآن، وهذا دليل على غاية الاهتمام به، والحرص عليه⁽¹⁾.

الوصية الثالثة:

قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم»⁽²⁾. وفي رواية البخاري: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»⁽³⁾.

وفي هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكي من الأقدار، فالنفس التي تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحالٍ من الأحوال كلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعودتها فملتها وتطلعت إلى المزيد، فهي دائماً في تلهف إلى كثرة المال وتعلق به وسخط وحسرة وازدراء للنعم، وجحود للنعم، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»⁽⁴⁾.

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة ويرضى بما قسم الله له، وينال القناعة، ويحظى بالسعادة ولو كان مبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة، لأنه إن كان فقيراً لا

(1) المصدر نفسه (1 / 161).

(2) مسلم، ك الزهد رقم 2963.

(3) البخاري، ك الرقاق (7 / 187).

(4) رواه البخاري، ك الرقاق (7 / 175).

يملك وفرة من المال فليُنظر إلى من ابتلى بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضاً يشكو من بعض الآلام فليُنظر إلى من ابتلى بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائماً مقدراً للنعمة راضياً بما قسم الله له شاكراً صابراً، ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم، واستقامت أوضاعهم، وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء والقدر، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله عوضاً عن التنافس على حطام الدنيا الزائل⁽¹⁾.

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخوض في القدر:

- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ولم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»⁽²⁾.

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا»⁽³⁾.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال للصحابة لما تنازعوا في القدر: «عزمت عليكم أن تنازعوا فيه»⁽⁴⁾، وقد اختلف العلماء في توجيه هذه الأحاديث:

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 163).

(2) رواه ابن ماجه في المقدمة رقم 85، وحسنه محقق جامع الأصول.

(3) مجمع الزوائد (7 / 202)، صححه الألباني في الصحيح الجامع.

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 34.

أ - فبعضهم رأى ثبوتها، واستدل بها على وجوب الوقف على الخوض والكلام في القدر، وقال: إن هذا أحسن المذاهب لمن أثر الخلاص والسلامة⁽¹⁾.

ب - وبعضهم رد هذه الأحاديث، وقال: إن أسانيدھا كلها لا تخلو من مقال، فهي إذن ضعيفة لا يحتج بها⁽²⁾.

ج - والذي نرجحه أنها ثابتة، وأقل ما فيها أنها حسنة، لأن لها طرقاً يقوي بعضها بعضاً، وحيث أن الجواب عنها كما يلي:

- إن المنهي عنه إنما هو الخوض فيها بالباطل، وذلك بالخوض في كل ما يتعلق بالقدر، ومحاولة معرفة وجه الحق فيه عن طريق العقل القاصر، ولا شك أن هذا لا يجوز.

- والقدر ركن من أركان الإسلام، وقد وردت فيه الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ، فكيف يأتي النهي عن الكلام فيه؟ إن هذا دليل على أن النهي إنما هو منصب على الخوض فيه على وجه التنازع والاعتراض على الله - تعالى - لا وجه المعرفة الصادقة من الأدلة الصحيحة.

- وفي الأحاديث نفسها ما يدل على ذلك، ألا وهو قوله: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» فهل معناه الإمساك عن ذكر الصحابة وفضائلهم وجهادهم؟ أم أن النهي منصب على شيء معين؟ وهو الإمساك عن ذكرهم بالباطل، وعما شجر بينهم. رضوان الله عليهم

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 25.

(2) المصدر نفسه، ص: 25.

جميعاً . وكذلك يقال في القدر .

- والرسول ﷺ نهى الصحابة عن التنازع في القدر، وهذا حق؟ لأن التنازع مظنة الاختلاف، وهذا داع إلى القول فيه بغير الحق، وهو منهي عنه، وإلا فالقدر من أركان الإيمان، ولا بد من معرفة هذا الركن بالتفصيل كما جاء في الكتاب والسنة وأقوال السلف، حتى يتحقق الإيمان، وحتى يثمر ثماره المرجوة .

- وعلماء السلف الذين ذكروا القدر، وبحثوا فيه، بل ألفوا رسائل وكتباً مستقلة، هل معناه أنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ؟ وإذا كانت ترد حوله بعض الإشكالات، ألا يجب بيان الحق للناس حتى لا يضلوا؟ وحتى لا يكونوا على بصيرة من أمر دينهم؟

- أما ما يؤثر عن بعض العلماء من أن القدر سر لله في خلقه، وهذا صحيح يجب إدراكه لكل من يبحث في القدر، لكن هذا محصور في الجانب الخفي من القدر، ألا وهو كونه ﷻ أضل وهدى، وأمات وأحيا، ومنع وأعطى، وقسم ذلك بين عباده بقدرته ومشيئته النافذة، فمحاولة معرفة سر الله في ذلك لا تجوز، لأن الله حجب علمها حتى عن أقرب المقربين، أما جوانب القدر الأخرى وحكمه العظيمة، ومراتبه ودرجاته وآثاره، فهذا مما يجوز الخوض فيه، وبيان الحق للناس فيه، بل بيانه مما يندب إليه وينبغي شرحه وإيضاحه للناس، إذ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي ينبغي تعلمها ومعرفتها⁽¹⁾ .

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص : 27.

سادساً، في عهد الخلفاء الراشدين:

كان أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ من سلامة العقيدة، والتسليم لله ورسوله في كل أمر وعدم الجدل والخوض فيما خاض فيه من بعدهم، وبالنسبة لعقيدة القضاء والقدر، كان موقف الصحابة والتابعين التسليم والإيمان به على الوجه الحق، كما بينه لهم رسول الله ﷺ ولم يكن يبدر منهم شيء إلا كما بدر من بعضهم في عهد الرسول ﷺ وسرعان ما يزول الالتباس بالإيمان القوي بعد البيان والإيضاح⁽¹⁾، ومن أقوال الصحابة في القضاء والقدر:

1. أبو بكر ﷺ:

قال أبو بكر ﷺ: خلق الله الخلق فكانوا في قبضته فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار ولا أبالي فذهبت إلى يوم القيامة⁽²⁾.

2. عمر بن الخطاب ﷺ:

خرج عمر بن الخطاب ﷺ من المدينة إلى الشام ومعه جمهور المهاجرين والأنصار حتى قدم دمشق، فوقع بالشام طاعون فخاف عمر أن يقدم بأصحاب رسول الله ﷺ، واستشار الصحابة في ذلك ممن معه من المهاجرين والأنصار ومن كان بالشام فقيهاً، فاختلّفوا عليه حتى جاء عبد الرحمن بن عوف فروى له عن النبي ﷺ: «إذا

(1) شرح أصول واعتقاد أهل السنة للالكائي (4 / 734).

(2) القضاء والقدر للمحمود، ص: 154.

سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». فحمد الله عمر ثم انصرف فخطبهم على باب الجابية^(١)، ليقص عليهم ويعرفهم سبب انصرافهم فقال في خطبته كما أنزل الله في كتابه وأمر رسوله استفتاح الخطيب بها: من يضل الله فلا هادي له ومن يهدي فلا مضل له، فقال جاثليق^(٢) النصارى: إن الله لا يضل أحداً مرتين أو ثلاثاً فأنكر الصحابة ذلك عليه مرتين:

فقال عمر لأصحاب رسول الله ﷺ ما يقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحداً. فقال عمر: كذبت بل الله خلقك والله أضلك ثم يمتك فيدخلك النار إن شاء الله، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك وتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان^(٣).

وعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بَسْرغ^(٤) لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم فأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام فاختلفوا في الأمر، فقال بعضهم: خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه.

وقال آخرون: إن معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ لا

(1) الجابية قرية من أعمال دمشق.

(2) جاثليق: لعلها رتبة دينية عند النصارى.

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4 / 726).

(4) سرغ: قرية بوادي تبوك في أرض الجزيرة.

نرى أن تقدمهم على هذا الوفاء .

فقال عمر : ارتفعوا عني :

ثم قال : ادع لي الأنصار . فدعوهم . له ، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم .

فقال : ارتفعوا عني .

ثم قال : ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوا له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم رجلان قالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوفاء ، فأذن عمر بالناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه . قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله ؟ قال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله ﷻ إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان⁽¹⁾ إحداهما : خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟

قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » ، قال : فحمد الله عمر ثم انصرف⁽²⁾ .

(1) ثنية عدوى : وهو جانب من الوادي وحافته .

(2) البخاري رقم 5729 ، 5730 .

وقال أبو عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب . وهو يطوف بالبيت . يقول: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فاثبتني فيها وإن كنت كتبتني على الشقوة فامحني منها واثبتني في السعادة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب⁽¹⁾.

3. علي بن أبي طالب عليه السلام:

خطب علي بن أبي طالب فقال: ما يمنعه أن يقوم . فيخضب هذه من هذا. قالوا: يا أمير المؤمنين أما إذ عرفته فأرنا نبير عثرته فقال: أنشد الله رجلاً قتل لي غير قاتلي.

قالوا: فأوصنا قال: أكلكم إلى ما وكلكم الله ورسوله إليه . قالوا: فما تقول لربك إذا قدمت عليه؟ قال: أقول كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم حتى توفيتني وهم عبادك إن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم⁽²⁾.

وقال: إن أحدكم لن يخلص الإيمان إلى قلبه حتى يستيقن يقيناً غير ظن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله⁽³⁾. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: إن القدر لا يرد القضاء ولكن الدعاء يرد القضاء⁽⁴⁾، قال الله لقوم يونس: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَضَابَ الْغَزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ﴾ [يونس: 98].

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4 / 735).

(2) المصدر نفسه (4 / 736).

(3) المصدر السابق نفسه (4 / 738).

(4) المصدر السابق نفسه (4 / 737 ، 738).

4. عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا والله لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويقر ويعلم أنه ميت وأنه مبعوث من بعد الموت⁽¹⁾.

وقال رضي الله عنه: أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، فاتبعوا ولا تبتدعوا، فإن الشقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره⁽²⁾.

5. عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

عن ابن طاووس عن أبيه قال: أشهد لسمعت ابن عباس يقول: العجز والكيس بقدر⁽³⁾، قال ابن عباس: إن الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فخلق القلم فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه⁽⁴⁾، وقال ابن عباس: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقى لا انفصام لها⁽⁵⁾.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4 / 739).

(2) المصدر نفسه (4 / 738).

(3) المصدر نفسه (4 / 741).

(4) المصدر نفسه (4 / 742).

(5) المصدر نفسه (4 / 742).

فقال: يا أبا العباس أرايت من صدني عن الهدى وأوردني الضلالة والردى ألا تراه قد ظلمني؟ قال: إن الهدى إن كان شيئاً لك عنده فمنعكاه فقد ظلمك وإن كان هو له يؤتيه من يشاء فلم يظلمك. قم لا تجالسني⁽¹⁾. عن ابن عباس قال: كان الهدهد يدل سليمان على الماء، وقلت له: كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ عليه التراب؟ فقال: أعضك الله بهن أبيك، ألم يكن إذا جاء القضاء ذهب البصر⁽²⁾.

6. عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

عن يحيى بن يعمر قال: قلت لابن عمر: إنا نسافر فنلقى قوماً يقولون: لا قدر، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أن ابن عمر منهم بريء، وهم براء. ثلاث مرات⁽³⁾.

7. أبي بن كعب رضي الله عنه:

عن ابن الديلمى قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر فإنه وقع في قلبي شيء من هذا القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهب عني، فقال: إن الله ﻻ لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن مت على غير ذلك دخلت النار. قال: ثم

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4 / 743).

(2) المصدر نفسه (4 / 743).

(3) المصدر نفسه (4 / 744).

أتيت ابن مسعود فحدثني بمثل ذلك ثم أتيت ابن ثابت فحدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ⁽¹⁾.

8. عبادة بن الصامت ؓ:

عن عبادة قال له ابنه عبد الرحمن: يا عبادة أوصني، قال: اجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: يا بني اتق الله ولن تتق الله حتى تؤمن بالقدر ولن تؤمن بالقدر حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك⁽²⁾.

9. الحسن بن علي بن أبي طالب ؓ:

قال الحسن بن علي: قضى القضاء وجف القلم وأمور بقضاء في كتاب قد خلا⁽³⁾.

10. عمرو بن العاص ؓ:

قال عمرو بن العاص: انتهى عجبني إلى ثلاث: المرء يفر من القدر وهو لاقيه، ويرى في عين أخيه القذا فيعييها ويكون في عينه مثل الجذع فلا يعييها، ويكون في دابته «الصعر» ويقومها جهده ويكون في نفسه الصعر، فلا يقومها⁽⁴⁾.

11. أبو الدرداء ؓ:

قال أبو الدرداء: ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم والرضا

(1) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (4 / 745).

(2) المصدر نفسه (4 / 746).

(3) المصدر نفسه (4 / 746).

(4) المصدر نفسه (4 / 747).

بالقدر والإخلاص للتوكل والاستسلام للرب⁽¹⁾.

ولا بد هنا من البيان أن تقسيم القدر إلى خير وشر، إنما هو بإضافته إلى الناس والمخلوقات، أما بالنسبة لله ﷻ، فالقدر كله خير وحكمة وعدل ورحمة من الله سبحانه الذي قضى بتقدير المصائب والبلايا وكل ما يكرهه الإنسان لحكم كثيرة من أبرزها:

- الابتلاء لعباده: واختبارهم وتمحيص الإيمان في قلوبهم وزيادة درجاتهم وثوابهم إذا صبروا، قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْغَيْرِ وَالْغَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] والمقصود بالفتنة هنا الاختبار وقال سبحانه: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُلْزِمُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [٣] ﴿[العنكبوت: 2 - 3].

- التربية والتأديب: والجزاء المعجل لكي يشوب الإنسان إلى رشد، ويرجع عن خطئه⁽²⁾، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [النحل: 34].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»⁽³⁾.

ما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينه، وإن يسوؤه فهو

(1) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (4/ 749).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 152).

(3) سنن الترمذي رقم 2396 حديث حسن غريب.

نعمة، لأنه يكفر خطاياهم، ويثاب عليه بالصبر، ومن جهة إن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216] وكلتا نعمتين تحتاج مع الشكر إلى صبر⁽¹⁾. والمقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون⁽²⁾.

وفي بيان قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79] نلاحظ: فَرَّقَ ﷻ بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافة إلى الله، إذ هو أحسن بها من كل وجه. أما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه فإن الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير⁽³⁾.

(1) مجموع الفتاوى (8/ 209-210).

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1/ 153).

(3) المصدر نفسه (1/ 154).

المبحث الثاني

مراتب القدر على أربع مراتب

أولاً: مرتبة العلم؛

الإيمان بعلم الله ﷻ المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكّنات والمستحيّلات، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عالمون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلايته ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب⁽¹⁾.

والأدلة من القرآن الكريم كثيرة منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:

[59]

(1) معارج القبول للحافظ الحكيمي (1 / 920).

ومفاتيح الغيب فسرهما رسول الله ﷺ بأنها خمس لا يعلمها إلا الله وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ فَيْبِغُنَّ مَا فِي الْبَرْحِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 34].

والآية دلت على أن الله ﷻ محيط علمه بجميع الموجودات بريها وبحريها وما تسقط من ورقة إلا يعلمها فهو يعلم حركة الجمادات، ومن باب أولى غيرها من الحيوانات وبني الإنسان المكلفين⁽¹⁾، وقد أحاط علمه ﷻ بكل حبة كائنة في ظلمات الأرض من الأمكنة المظلمة أو النبات الذي في بطن الأرض قبل أن يظهر⁽²⁾.

2. وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ [الحشر: 22] أي: السر والعلانية، أو الدنيا والآخرة، أو المعدوم والموجود⁽³⁾.

3. وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان⁽⁴⁾، فإحاطته سبحانه بكل شيء علماً يدل على ثبوت صفة العلم لله المتصف به أزلاً والشامل لكل شيء⁽⁵⁾.

(1) تفسير ابن كثير (3/ 260).

(2) فتح البيان، صديق خان (3/ 172)، القضاء والقدر للمحمود، ص: 56.

(3) تفسير النسفي (5/ 181).

(4) فتح البيان (9/ 474)، القضاء والقدر للمحمود، ص: 56.

(5) لقضاء والقدر للمحمود، ص: 56.

4. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٨٨﴾ [طه: 98] .

فبعد أن أحرق موسى . عليه السلام العجل، ونسفه في البحر، فبطل أن يكون إلهاً كما زعموا، فلما فعل ذلك وتبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وهو الله ﷻ، المتوحد بالالوهية، والذي قد أحاط علمه بجميع الأشياء⁽¹⁾.

5. وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: 216] ، فعواقب الأمور لا يعلمها إلا الله⁽²⁾.

6. وقال تعالى: مجيباً الملائكة . بعد إخبارهم أنه جاعل في الأرض خليفة واستفهامهم . قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] أي: أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء، ورسول، وقوم صالحون، وساكنو الجنة⁽³⁾، فعلمه محيط بكل شيء.

7. وقال تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3].

الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن

(1) تفسير السعدي (5 / 185).

(2) تفسير ابن كثير (1 / 368).

(3) تفسير ابن كثير (1 / 368)، القضاء والقدر المحمود، ص: 57.

تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت؟ وأين تفرقت؟ ثم يُعيدُها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم⁽¹⁾.

8 - وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32] ، أي: هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وكذا قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كتب الملك الذي يُوكَّلُ به: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد⁽²⁾.

9 - وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 10] ، أي: أليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة⁽³⁾؟

10 - وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَاً﴾ [الجن: 28] .

- أدلة هذه المرتبة من السنة :

1 - عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال: سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»⁽⁴⁾.

(1) صحيح تفسير ابن كثير (3/ 605).

(2) المصدر نفسه (4/ 318).

(3) المصدر السابق نفسه (3/ 457).

(4) البخاري رقم 2660.

2 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها»، قالوا: يا رسول الله: أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». والشاهد قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين»⁽¹⁾ بالنسبة لأولاد المشركين والمسلمين، ومعنى ذلك أنهم لو عاشوا فإن الله عالم بأعمالهم خيرها وشرها، فالله يعلم ما كان، وما لم يكن لو كان كيف يكون⁽²⁾.

3 - وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً، وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار». قالوا: يا رسول الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّا مَنَ آعَطَىٰ وَآفَقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾﴾⁽³⁾، إلى قوله: ﴿فَسَيَرُ لِّلْمُرَّةِ ﴿١٧﴾﴾ [النيل: 10] ، والشاهد قوله: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» فالله علم أهل الجنة وأهل النار بعلمه القديم، فالحديث يدل على ثبوت العلم الكامل لله تعالى⁽⁴⁾.

4 - وعن عائشة أم المؤمنين أن نبي الله ﷺ قال: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما

(1) البخاري رقم 2658.

(2) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 58.

(3) مسلم رقم 2647.

(4) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 59.

اختلف فيه من الحق بإذتك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم⁽¹⁾.

5 - وقال ﷺ: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»⁽²⁾، فاسم الله «العليم» يقتضي أنه سبحانه عالم بأرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم والشقي منهم والسعيد قبل أن يخلقهم⁽³⁾.

ثانياً، مرتبة الكتابة:

وهي أن الله تعالى كتب مقادير المخلوقات، والمقصود بهذه الكتابة: الكتابة في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله وأدلة هذه المرتبة كثيرة نذكر منها:

1 - قوله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ رَيْبٌ يُخْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]، على أحد الوجهين، وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ⁽⁴⁾.

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] . فأخبر . تعالى .

(1) مسلم، ك الصلاة رقم 770.

(2) صحيح ابن ماجه للالباني (2 / 332).

(3) المباحث العقديّة، علي الكيلاني (2 / 880).

(4) القضاء والقدر. عبد الرحمن المحمود، ص: 60.

أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة⁽¹⁾. والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ⁽²⁾.

3 - وقال تعالى في قصة أسرى بدر: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68] ، أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحل لكم الغنائم وأن الله رفع عن أمة محمد ﷺ، لمسكم العذاب⁽³⁾، فالآية دليل على الكتاب السابق⁽⁴⁾.

4 - وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70]. وهذه الآية من أوضح الأدلة الدالة على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ⁽⁵⁾، فالآية جمعت بين المرتبتين⁽⁶⁾.

5 - وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ [الأنفال: 75] ، أي: خفية أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي، إلا في كتاب مبين، قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جلي أو خفي، إلا هو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ⁽⁷⁾، فالآية دليل على الكتابة

(1) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 177).

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 60.

(3) تفسير السعدي (3 / 191).

(4) تفسير ابن كثير (5 / 448)، تفسير النسفي (3 / 389).

(5) المصدر والرقم نفسه.

(6) القضاء والقدر، ص: 60.

(7) تفسير السعدي (5 / 598).

السابقة لكل ما سبق.

6 - وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأٍ وَمَا تَنَلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61] ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أي شيء، حتى مشاقيل الذر، بل هو ما أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [يونس: 61]: مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله ﷻ بين هاتين المرتبتين⁽¹⁾.

7 - قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12]، أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا: هو أم الكتاب⁽²⁾.

8 - وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: 52، 53]، أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها⁽³⁾.

9 - وقال تعالى عن موسى حين قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ

(1) تفسير السعدي (3 / 366).

(2) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 654).

(3) المصدر نفسه (4 / 335).

الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿طه : 51-52﴾.

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر وهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عَمَلَهُمْ عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: 52] أي: لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان، أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك⁽¹⁾.

10. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَفْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11].

الأدلة من السنة:

1. قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، قال: «وكان عرشه على الماء»⁽²⁾، فالدليل من

(1) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 115).

(2) مسلم، ك القدر رقم 2653.

الحديث قوله: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض، فالمراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله: «وعرشه على الماء» أي: قبل خلق السموات والأرض⁽¹⁾.

2. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه: ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام إني معلمك كلمات ينفعك الله بهنّ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽²⁾.

3. ومن الأحاديث المشهورة حديث: «أول ما خلق الله القلم» وفيه: أن الله أمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة، فعن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»⁽³⁾، فالرواية فيها دليل

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (16 / 203).

(2) سنن الترمذي (4 / 667) رقم 2516 حسن صحيح.

(3) سنن أبي داود، ك السنة، باب في القدر رقم 4700.

على مرتبة الكتابة حيث أمر الله القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة⁽¹⁾.

ثالثاً: مرتبة الإرادة والمشئنة:

إن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله، ﷻ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء ومن الأدلة في القرآن الكريم:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس: 82].

أي: إنما يأمر بالشيء، أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له: ﴿كُنْ﴾ قوله: فيكون⁽²⁾.

2 - وقد ورد في القرآن الكريم . في الحديث عن بعض الأنبياء وغيرهم . تعليقهم كل أمر بمشيئة الله ﷻ .

أ - فنوح عليه الصلاة والسلام، لما قال له قومه: ﴿فَأَنذَرْنَا يَمَّا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْيِكُم بِإِلَهِ اللَّهِ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: 32-33].

ب - وشعيب عليه السلام بعد ما طلب منه قومه أن يعود إلى ملتهم بين أنه لا يمكن أن يعود إلى ملتهم بعد أن نجاه الله منها هو والمؤمنون معه ولا ينبغي لهم ذلك إلا إذا شاء الله ذلك فقال: ﴿قَدْ

(1) القضاء والقدر، المحمود، ص: 65.

(2) صحيح تفسير ابن كثير (3/ 675).

أَفَرَأَيْتَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا بَيْنَهُمَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿[الأعراف: 89] ، فعلق أعظم شيء وهو الإيمان والكفر على مشيئة الله .

ج - ويوسف عليه السلام ، قال لأهله بعد أن التقى بهم: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ﴾ [يوسف: 99].

د - وقال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69].

هـ - والله تعالى وجهه نبيه قائلاً: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: 23، 24].

فهذه الآيات تدل على استقرار عقيدة المسلمين وبقينهم بهذه المرتبة من مراتب القدر⁽¹⁾.

3 - قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْغَنِيُّ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26]، أي: أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم يشأ لم يكن⁽²⁾.

4 - قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا

(1) القضاء والقدر، المحمود، ص: 70.

(2) صحيح تفسير ابن كثير (1 / 338).

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْقَهَّيْرُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ [آل عمران: 6]، أي وهو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء ذكوراً وإناثاً، أشقياء وسعداء مختلفين في صفاتهم وأشكالهم، حسناً وقبحاً⁽¹⁾.

5 - قال تعالى: ﴿مَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125]، أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ [الأنعام: 125] أي يجعل صدره ضيقاً، لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه⁽²⁾.

6 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13] .

7 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: 35] .

8 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: 118] .

9 - قوله تعالى في معرض الحديث عن أهل الكتاب، ونهى النبي ﷺ على أن يتبع أهواءهم، وأمره أن يلتزم الحكم بما أنزل الله، مبيناً أن لكل من الأمم الثلاثة: اليهود والنصارى، وأمة محمد،

(1) القضاء والقدر، ص: 71.

(2) صحيح تفسير ابن كثير (2/ 69).

شريعة ومنهاجاً في كل من التوراة والإنجيل والقرآن، «وقد نسخ القرآن ما قبله» قال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: 48]، أي: لجعلكم على شريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد، لكن لما لم يشأ الله ذلك، بل شاء الابتلاء والاختبار، فكنتم على الحالة التي أنتم عليها⁽¹⁾، فمشينة الله مطلقة، والنافذ هو ما يشاؤه ﷻ فهذا دليل على مرتبة المشينة⁽²⁾.

أدلة هذه المرتبة من السنة:

1. عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء»⁽³⁾. فأوصى بالشفاعة وذلك فيما ليس بمجرم وضابطها: ما أذن في الشرع دون ما لم يأذن فيه⁽⁴⁾، ثم بين أن الله يقضي على لسان رسوله ما شاء، أي: يظهر على لسان رسوله بالوحي أو الإلهام ما قدره في علمه بأنه سيقع⁽⁵⁾، فهذا يدل على مرتبة المشينة.

2. قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»⁽⁶⁾، فقوله: من يرد الله به

(1) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 69.

(2) المصدر نفسه، ص: 69.

(3) البخاري، ك الزكاة، فتح الباري (3/ 299).

(4) فتح الباري (10/ 451).

(5) المصدر نفسه (13/ 452).

(6) البخاري، ك فتح الباري (1/ 164).

خيراً يفقهه في الدين، فيه إثبات مرتبة الإرادة، وأن الأمور كلها تجري بمشيئة الله تعالى ولهذا قال ﷺ: «وإنما أنا قاسم والله يعطي»، أي: إنما أقسم ما أمرني الله بقسمته، والمعطي حقيقة هو الله تعالى فالأمور كلها بتقدير الله تعالى، والإنسان مصرف مريب، ومن الأحاديث الدالة على الإرادة حديث حذيفة بن أسيد الغفاري صاحب رسول الله ﷺ، رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: «إن ملكاً موكلًا بالرحم، إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لوضع وأربعين ليلة...» الحديث⁽¹⁾. فالله هو المريد الخلق الآدمي، والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً⁽²⁾.

3 - وعن ابن عباس ؓ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، وقال النبي ﷺ: «أجعلني الله والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»⁽³⁾، والحديث واضح الدلالة على إثبات مرتبة المشيئة، وأن الله تعالى له المشيئة المطلقة، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله تعالى، والنهي في الحديث إنما هو عن قرن مشيئة الله بمشيئة الرسول ﷺ، حيث عطفها بالواو والتي هي لمطلق الجميع من غير ترتيب ولا تعقيب، والرسول مثل غيره من العباد، فالكل خاضعون لمشيئة الله، ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله⁽⁴⁾.

4 - وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت ارحمني إن شئت ارزقني إن شئت،

(1) مسلم رقم 2645.

(2) القضاء والقدر، ص: 76 المحمود.

(3) مصنف ابن أبي شيبة رقم 6742.

(4) القضاء والقدر المحمود، ص: 75.

وليعزم مسئلته أنه يفعل ما يشاء لا مكره له⁽¹⁾.

ففيه إثبات المشيئة لله - تعالى . فهو الغفور الرحيم ، والرازق إذا شاء ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء ، لا مكره له ، والحديث فيه الحث على العزم في المسألة والجزم فيها ، دون ضعف أو تعليق على المشيئة ، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه إلى الإكراه ، والله ﷻ لا مكره له ، كما نص عليه الرسول ﷺ هنا⁽²⁾.

5 - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»⁽³⁾ . والشاهد قوله : «كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ، ومعناه أنه ﷻ متصرف في قلوب عباده كلهم ، فيهدي ويضل كما يشاء ، ففيه دلالة على مرتبة المشيئة⁽⁴⁾.

6 - وقد أقر النبي ﷺ علي بن أبي طالب ؓ حين أجابه بعد سؤاله له هو وفاطمة بقوله : «ألا تصلين؟» فأجابه بقوله : أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، قال علي : فأنصرف حين قلت له ذلك ، ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مَوْلٌ يضرب فخذه وهو يقول :

(1) فتح الباري (11 / 139) مسلم رقم 2678.

(2) شرح النووي على مسلم (17 / 7.6) ، فتح الباري (11 / 140).

(3) مسلم ، ك القدر رقمه 2654 (4 / 2045).

(4) شرح النووي على مسلم (16 / 204).

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54] ⁽¹⁾.

ففي هذا الحديث إثبات لمشينة الله . تعالى . وأن العبد لا يفعل شيئاً إلا بإرادة الله وأما انصراف النبي ﷺ وضربه فخذه، واستشهاده بالآية، فمعناه: أنه تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه ⁽²⁾.

7 - كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند» ⁽³⁾.

وهذا تحقيق لوحدانيتها لتوحيد الربوبية خلقاً وقدرأً وبداية وهداية هو المعطي المانع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمرأً ونهياً ⁽⁴⁾. وفي هذا الحديث: فيه من التفويض إلى الله تعالى والإذعان له والاعتراف بوحدانيته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به وأن الخير والشر منه والحث على الزهادة في الدنيا والإقبال على الأعمال الصالحة ⁽⁵⁾.

8 - وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن

(1) فتح الباري (3 / 10) مسلم رقم 775..

(2) شرح النووي (4 / 2045).

(3) مسلم رقم 771.

(4) مجموع الفتاوى (14 / 376).

(5) شرح صحيح مسلم للنووي (4 / 195. 196).

بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽¹⁾.

ففي الحديث حث رسول الله ﷺ على الإيمان بمقادير الله وبمشيئة الله وإرجاع ما يقع للعبد إلى مشيئة الله: «وما شاء فعل» فيه إثبات المشيئة لله تعالى⁽²⁾.

9 - وعن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعودُه فقال: «لا بأس عليك طهور إن شاء الله»، قال الأعرابي: طهور، بل هي هي حمى تفور على شيخ كبير، تُزيه القبور، قال النبي ﷺ: «فنعم إذا»⁽³⁾.

وهذا الحديث استدل به البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد علي إثبات مشيئة الله ﷻ، كما هو واضح في تخريج الحديث، حيث بَوَّب له باب: في المشيئة والإرادة.

والشاهد منه قوله ﷺ: «إن شاء الله». فجعل كون هذا المرض الذي أصيب به المريض طهوراً من ذنوبه ومكفراً لها مقيداً بمشيئة الله تعالى وفوض ذلك فإن شاء الله تعالى جعله كفارة وطهوراً فهو يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير⁽⁴⁾.

(1) مسلم رقم 2664.

(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2 / 883).

(3) البخاري، ك التوحيد رقم 7032.

(4) المباحث العقدية (2 / 884).

10 . وفيما يقال عند دخول القبور ما ورد عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأناكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»⁽¹⁾.

والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً.

رابعاً: مرتبة الخلق،

وهو الإيمان بأن الله ﷻ خالق كل شيء، فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرة في السماوات وفي الأرض إلا والله ﷻ خالقها وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه⁽²⁾. ومن الأدلة من القرآن:

1 . قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصفات: 95، 96]. أي خلقكم وعملكم، فتكون ما مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم وهو الأصنام⁽³⁾.

وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: وكلا القولين متلازم والأول أظهر⁽⁴⁾، وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد

(1) مسلم، رقم 974.

(2) معارج القبول (3 / 940).

(3) زاد المسير في علم التفسير (7 / 70).

(4) تفسير ابن كثير (7 / 22) القضاء والقدر، ص: 77.

عن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾» [الصّافات: 96] فأخبر الصناعات وأهلها مخلوقة⁽¹⁾، فالله - تعالى - خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك، الآية والحديث⁽²⁾.

2. قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: 16]، وفي آية أخرى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [غافر: 62].

وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه ﷻ، فنفي ذلك سبحانه أمراً رسولاً أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر، وتدلل على وحدانية الله - تعالى - وانفراده بالخلق والرزق ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله - تعالى - وكماله ودلائل وحدانيته: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة، حيث جعل لعباده الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء⁽³⁾.

3. وقال تعالى: ممتناً على الصحابة - رضوان الله عليهم - بعد أن أمرهم بالتشبث في خبر الفاسق قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَخَبْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ

(1) تفسير ابن كثير (7 / 22) القضاء والقدر، ص: 77.

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 77.

(3) المصدر نفسه، ص: 78.

وَرَزَيْنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ ﴿٧﴾ [الحجرات: 7] .

والشاهد قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ وَكْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ...﴾ فهو سبحانه هو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهاً عندكم وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى⁽¹⁾.

وهناك آيات كثيرة تدل على أن الله . تعالى . هو المضل والهادي، والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم وأنه المضحك والمبكي، والمميت والمحيي، وكل ذلك دليل مرتبة⁽²⁾ الخلق.

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذا الدعاء في تفسيره آية الحجرات السابقة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 7] قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال ﷺ: «استووا حتى أُنْثِيَ على ربي» فصاروا خلفه صُفُوفاً: فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لك الحمد كله، اللَّهُمَّ لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللَّهُمَّ أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللَّهُمَّ إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللَّهُمَّ إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان (9 / 74).

(2) القضاء والقدر، المحمود، ص: 79.

منعت، اللهم حجب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق⁽¹⁾. فترى في هذا الحديث الإقرار بأن الله - تعالى - هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق⁽²⁾.

أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 - عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»⁽³⁾...

الشاهد قوله: اللهم آت نفسي تقواها وزكها؛ فالفاعل هو الله تعالى فهو الذي يطلب منه ذلك، ولفظ خير ليس للتفضيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك أنت وليها ومولاها⁽⁴⁾، فهو سبحانه الملهم للنفس للخير والشر.

قال تعالى: ﴿فَالْتَمَسَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8].

(1) مسند أحمد (3 / 4224) السنة لابن أبي عاصم رقم 381.

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 80.

(3) مسلم، ك الذكر والدعاء رقم 2722 (4 / 2088).

(4) شرح النووي على مسلم (17 / 41).

قال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية: ﴿فَأَلَمَتْهَا لُجُورُهَا وَتَقَوَّلَتْهَا﴾ [الشمس: 8] أي: فالخلق لله والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه، وقال ابن زيد في معنى الآية: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها بالفجور⁽¹⁾.

2. وعن البراء بن عازم رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا⁽²⁾

وفي رواية أخرى للبخاري: «ولا تصدقنا ولا صلينا»⁽³⁾، بدل: ولا صمنا ولا صلينا، وبهذه الرواية يستقيم الوزن، قال ابن حجر: وهو المحفوظ⁽⁴⁾. ودليل هذه المرتبة قوله: لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فإنها دليل على أن الله هو خالق العباد وأفعالهم ومنها: الهداية، والصدقة، والصلاة⁽⁵⁾.

3. وعن وِزَاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا

(1) زاد المسير، ابن الجوزي (9 / 140).

(2) فتح الباري (11 / 516).

(3) المصدر نفسه (7 / 399).

(4) المصدر نفسه (11 / 516).

(5) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 83.

الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»⁽¹⁾.

الشاهد قوله: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت فالمعطي والمانع هو الله تعالى، فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله ﷻ.

وقوله: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح⁽²⁾.

4 - وقد قال ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: «يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «قل: لا حول ولا قوة إلا بالله»⁽³⁾. والشاهد قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته، وحُكي هذا عن ابن مسعود ﷺ وكله متقارب⁽⁴⁾، والكنز هنا: معناه ثواب مُدَّخَر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس⁽⁵⁾.

(1) فتح الباري (2 / 325).

(2) القضاء والقدر، المحمود، ص: 81.

(3) فتح الباري (11 / 500).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم (17 / 26-27).

(5) المصدر نفسه (17 / 27).

5 - وعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين» وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين»⁽¹⁾.

ففي الحديث: دلالة على أن الله فطر السموات والأرض أي: خلقهن وأبدعهن وأنقن صنعهن وأوجدهن من العدم على غير مثال سابق، فخلقه سبحانه لهذا الكون من أرض وسموات وما فيهن من رطب ويابس ومخلوقات عجيبة أكبر دليل على هذه المرتبة وأن الله يخلق الخلق بقدرته على ما اقتضاه علمه السابق ومشيته النافذة⁽²⁾.

6 - قال ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»⁽³⁾.

والحديث يدل على شيء مما خلق الله تعالى وهو خلق الإنسان وما احتواه هذا المخلوق من أعضاء وأجهزة يعجز الإتيان بمثلها إلا من هو خالق كل شيء سبحانه فالناظر في نفسه ودقة تكوينها وعجيب

(1) مسلم، ك، صلاة المسافرين رقم 771.

(2) المباحث العقديّة (2/ 886).

(3) البخاري، ك الدعوات رقم 5947.

خلقتها يؤمن بأن الله خالق كل شيء⁽¹⁾، فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه⁽²⁾.

(1) المباحث العقديّة (2/ 886).

(2) مدارج السالكين (1/ 221).

المبحث الثالث

التقادير الخمس وأنواع الإرادة

أولاً، التقادير الخمس،

إن الإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة تقادير:

1 - التقدير الأزلي:

قبل خلق السماوات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم.

- قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾
[التوبة: 51].

- وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٣﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد: 22، 23].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ عَلَامَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75].

- وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق

السَّمُوات والأَرْض بخمسين ألف سنة»، قال: «وعرشه على الماء»⁽¹⁾.

2. تقدير يوم الميثاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: 172، 173].

وهو ميثاق الفطرة الأول، وفيه أخذ الله تعالى من ظهر آدم ذريته، وهم كأمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ فجبلهم على حبه وتوحيده وتعظيمه وأقرهم على ذلك بالقوة فصارت النفوس تقر بخالقها، وتميل إلى توحيده وبقيت تلك الفطرة في قلوبهم حجة عليهم⁽²⁾.

إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: 30].

ثم جعلهم بعلمه وحكمته فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير⁽³⁾. قال ﷺ: «إن الله ﷻ خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي». قال:

(1) مسلم، ك القدر رقم 2653.

(2) القضاء والقدر عند السلف، علي السيد الوصيفي، ص: 56.

(3) المصدر نفسه، ص: 57.

فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: «على موقع القدر»⁽¹⁾.

3. التقدير العمري:

عند تخليق النطفة في الرحم، فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها والأجل والعمل، والشقاوة والسعادة وجميع ما هو لاق فلا يزداد فيه ولا ينقص منه⁽²⁾.

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَإْسِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِمَا أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: 5].

- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ مِن قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: 67].

(1) السلسلة الصحيحة للالباني رقم 48.

(2) معارج القبول (3 / 934).

- وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: 32] وغيرها من الآيات⁽¹⁾.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجَمَّعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يُرْسَلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»⁽²⁾، وفي رواية أخرى: «إذا أمر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»⁽³⁾.

4. التقدير الحولي: في ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾

(1) معارج القبول (3 / 935).

(2) البخاري في كتاب بدء الخلق رقم 3208.

(3) مسلم، ك القدر رقم 2645.

فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٢﴾
[الدخان: 3، 5].

قال ابن عباس رضي الله عنه : يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان وفلان^(١).

ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة^(٢)، فيقضي أمر السنة كلها من معاش الناس ومصائبهم وموتهم وحياتهم إلى مثلها من السنة الأخرى^(٣).

5. التقدير اليومي:

هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق.
قال تعالى: ﴿يَتَكَلَّمُونَ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: 29].

روى ابن جرير بسند حسن عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدی عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: 29] فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال ﷺ: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»^(٤).

(1) تفسير ابن كثير (4 / 140).

(2) تفسير أبو السعود (8 / 58).

(3) القضاء والقدر المحمود، ص: 68.

(4) تفسير ابن كثير (4 / 273)، صححه الألباني في ظلال الجنة.

قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

وقال البغوي في تفسيره: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]: من شأنه أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قومًا ويذل قومًا، ويشفي مريضاً، ويفك عانيًا، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء⁽¹⁾.

وجملة القول في ذلك أمن التقدير اليومي هو تأويل المقدور على العبد وإنفاذه فيه، في الوقت الذي سبق أن يناله فيه، لا يتقدمه ولا يتأخره.

ثم هذا التقدير اليومي تفصيل من تقدير الحولي، والحوالي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة، والعمري تفصيل من التخليق العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين والإمام المبين هو من علم الله ﷻ، وكذلك منتهى المقادير في آخرتها إلى علم الله⁽²⁾، فانتتهت الأوائل إلى أوليته وانتتهت الأواخر إلى آخريته ﴿وَأَنَّ إِلَيْنَا الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 42]⁽³⁾.

(1) تفسير الخازن والبغوي (6 / 80-81).

(2) معارج القبول (3 / 939).

(3) المصدر نفسه (3 / 940).

ثانياً، أنواع الإرادة:

تنقسم الإرادة في كتاب الله إلى إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية.

1. الإرادة الكونية:

هي المشيئة العامة التي يدخل فيها جميع المخلوقات من بر وفاجر وصالح وطالح، وهي إرادة الله تعالى لفعله، سواء إن كان المفعول منه محبوباً أو غير محبوب، يرضيه أم لا يرضيه، فالله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يشاء شيئاً إلا بعد إرادته له، وكل ما كان منه فليس فيه إلا الجمال والجلال والحسن، أما أفعال العباد فهي منقسمة، ففيها الحسن وفيها القبيح، وليس للعباد أن يفعلوا ما يشاؤون، وإنما يفعلون ما يؤمرون به امتثالاً وانتهاءً، وهذا هو الحسن منهم، وتلك الإرادة متعلقة بالخلق، وهي من لوازم الربوبية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويدخل في هذه المشيئة خلق الأقوياء والضعفاء والفقراء والمؤمنين الكفار، والملائكة والشياطين، وخلق الخيرات والفضائل، وخلق السيئات والحسنات، وخلق التوفيق والخذلان، وخلق القوة والعجز، والبلادة والذكاء⁽¹⁾. وهذه بعض الآيات تدل على الإرادة الكونية.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112].

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا وَلَكِنْ أَلَّهَ يَفْعَلُ مَا

(1) القضاء والقدر عند السلف للوصيفي، ص: 62.

يُرِيدُ ﴿البقرة: 253﴾.

- وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾
[يونس: 99].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ﴾
[النساء: 90].

- وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ مُصَبِّحًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي
السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصِيجِي إِن أَرَدْتُ أَن أُنْصَحَ لَكُمْ إِن
كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: 13].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30].

- وقال تعالى: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيم ﴿[الأنعام: 39].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿[يس: 82].

وهذه الإرادة وتلك المشيئة هي التي تستلزم وقوع المراد، والمراد إما أن يكون مراد لذاته محبوباً لله تعالى، وذلك لما فيه من الخير، كخلق الأنبياء والصالحين وكذلك كافة الفضائل والخيرات، أو مراداً لغيره وهذا يطلق على الكفر وجميع الشرور والآثام، فإنها ليست مراداً لذاتها وإنما هي مرادة لشيء آخر محبوب إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿[الزوم: 41].

وهذا دليل على إثبات الحكمة في جميع أفعال الله تعالى وأحكامه⁽¹⁾، والحق أن جميع أفعاله وشرعه لها حكم وغايات، لأجلها شرع وفعل، وإن لم يعملها الخلق على التفعيل، فلا يلزم من عدم علمهم بها انتفاؤها في نفسها.⁽²⁾

وحاصل الإرادة الكونية إثبات مشيئة الله تعالى المطلقة في إيجاد المخلوقات كلها واختلاف أنواعها وأشكالها، وتفاوت فضائلها وشرورها وجمالها ودمامتها وكيستها وعجزها، وكفرها وإيمانها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالله على كل شيء قدير، ولا

(1) القضاء والقدر عند السلف، ص: 63.

(2) المصدر نفسه، ص: 64.

يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا يقع فيه شيء كرهاً عنه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ مِنْ هَٰذَا ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَضِلِّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: 36-37].

فهو الذي أراد إيمان المؤمنين، وهو الذي أراد كفر الكافرين، وكل ذلك في علمه السابق، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علمه، وعلمه يستلزم ثبوت قدرته، وإذا كان قد علم أن أبا لهب سيكفر، فهذا معناه أنه لن يستطيع أن يخرج عن علمه ويؤمن، وهذا دليل أن الله تعالى سيحول بقدرته بينه وبين الإيمان، فلن يقدر عليه، ولن يقدر أبو لهب على خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]. وهذا ليس من باب تكليف ما لا يطاق، وإنما هذا من باب العقوبة: وهي نوع من الخذلان لمن زاغ عن صراط الله المستقيم، وأما طاقة الأسباب فهي مقدورة له، ولكن الله تعالى لم يوفقه ولم يقدره على بلوغ غاياتها، فما آمن من آمن إلا بفضل الله تعالى ورحمته، وما كفر من كفر كرهاً عنه إنما كان ذلك بخذلان الله تعالى له: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: 99]، وهو ﷺ خالق الخير، كما هو خالق الشر، لا إله غيره ولا رب سواه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزهد: 16]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203]، وفي الإرادة الكونية قد يبغض الله تعالى طاعة العاصي ولا يعينه عليها بعد الإرشاد والنصح والبيان؛ وذلك لحكمة عظيمة جليلة كما قال تعالى في المنافقين الذين تخلفوا مع الخوالم في بيوتهم، وتركوا الخروج للجهاد مع النبي ﷺ كما في غزوة تبوك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَكُمْ عُدَّةً

وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿التوبة: 46﴾⁽¹⁾، وقد بين الله تعالى الحكمة في بغضه لطاعته فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْصَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهْمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿التوبة: 47﴾ .

وهو سبحانه: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْكِرُونَ﴾ ﴿الأنبياء: 23﴾ ، وذلك لأنه يتصرف في ملكه، وهذا ليس فيه ظلم، إنما الظلم في الحقيقة يكون من تصرف المتصرف فيما لا يملك، ومنع المستحق ما يستحقه، والله تعالى لا يجب عليه شيء لأحد حتى يحاسب على ما ضيق ومنع، وعلى ما أهان وخذل، وإنما هو حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل قويم⁽²⁾.

أ - كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

فالمراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصود للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فاجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاؤه، وقطع العضو

(1) القضاء والقدر عند السلف، ص: 64.

(2) المصدر نفسه، ص: 65.

المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، كقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه⁽¹⁾.

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحبُّ إليه من فوته.

ومن ذلك: أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاء الكثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها إليه من عدمها:

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، المنتقم، والعدل، والضرار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت

(1) منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي، عبد الله الحافي، ص: 329.

هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون، ويستغفرون، فيغفر لهم»⁽¹⁾.

ومنها: ظهور أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء في مواضعها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت كعبودية الجهاد، والصبر، ومخالفة الهوى، وعبودية الاستعاذة، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها⁽²⁾.

ب - هل يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

هذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب⁽³⁾.

2 . الإرادة الشرعية :

هي إرادة الله تعالى لأمره الديني الشرعي، وهي التي أرسل من أجلها الرسل، وأنزل من أجلها الكتب وهي لا تستلزم وقوع المراد

(1) مسلم، باب التوبة رقم 2748.

(2) منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي، ص : 330.

(3) المصدر نفسه، ص : 330.

مع كونه محبوباً لله تعالى إلا إذا كان متعلقاً بالإرادة الكونية⁽¹⁾، والإرادة الشرعية الدينية تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقاً وتقديراً وإيجاداً، وأنه ﷻ يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية ويثيب أصحابها، ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وينصر بها، أي: الإرادة الدينية الشرعية للعباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين⁽²⁾، ومن الآيات الدالة على الإرادة الشرعية:

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] .

- وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6] .

- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 27] .

- وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ الْإِنْسَانِ ضَوْفًا﴾ [النساء: 28] .

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] .

(1) القضاء والقدر عند السلف، ص: 65.

(2) مجموع الفتاوى (8/ 188).

. قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

3 الفرق بين الإرادتين:

أ - الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.
 ب - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه الله، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه⁽¹⁾.

ج - فما كان بمعنى المشيئة فهو إرادة كونية وما كان بمعنى المحبة فهو إرادة شرعية، مثال الإرادة الشرعية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27] لأن يريد هنا بمعنى يحب ولا تكون بمعنى المشيئة لأنه لو كان المعنى: والله يشاء أن يتوب عليكم، لتاب على جميع العباد وهذا أمر لم يكن فإن أكثر بني آدم من الكفار، إذن يريد أن يتوب عليكم يعني يجب أن يتوب عليكم ولا يلزم من محبة الله للشيء أن يقع لأن الحكمة الإلهية البالغة قد تقتضي عدم وقوعه، ومثال الإرادة الكونية قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34] لأن الله لا يحب أن يغوي العباد إذن لا يصح أن يكون المعنى إن كان الله يحب أن يغويكم بل المعنى إن كان الله يشاء أن يغويكم.

د - الله يريد المعاصي كوناً لا شرعاً، لأن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والله لا يحب المعاصي ولكن يريد كوناً أي مشيئة فكل ما في السموات والأرض فهو بمشيئة الله⁽²⁾.

(1) شرح العقيدة الواسطية، محمد الصالح بن عثيمين (1 / 223).

(2) المجموع الثمين، لمحمد بن عثيمين (1 / 157).

4. المخلوقات مع كل من الإرادتين: تنقسم إلى أربعة:

أ - ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أرادته إرادة دين وشرع، فأمر وأحبه ورضيه، وأرادته إرادة كون فوق، ولولا ذلك ما كان.

ب - ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

ج - ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاء من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

د - ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي⁽¹⁾.

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً ما لم يرد به تشريعاً، وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون

(1) مجموع الفتاوى ابن تيمية (8/ 189)، القضاء والقدر عمر الأشقر، ص: 108.

الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَعْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148] ^(١).

ثالثاً: كلام حسن لابن القيم في الكوني والشرعي؛

قال ابن القيم في شفاء العليل: الباب التاسع والعشرون: في انقسام القضاء، والحكم، والإرادة، والكتابة، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإنشاء: إلى كوني متعلق بخلقه، وإلى ديني متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال، هذا الباب متصل بالباب الذي قبله ^(٢)، فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني والقدري.

أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يُقضى ويُقدَّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ 198)، القضاء والقدر للأشقر، ص: 108.

(٢) من كتاب شفاء العليل، انظر: الجامع الصحيح في القدر، ص: 129.

عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي إذا عرف ذلك.

فالقضاء في كتاب الله نوعان:

- كوني قدري: كقوله: ﴿فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَى الْمَوْتِ﴾ [سَبَأ: 14].

وكقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: 69].

- وشرعي ديني: كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]. أي: أمر وشرع ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله.

والحكم أيضاً نوعان:

فالكوني: كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: 112]. أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك.

والديني: كقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [المُتَحَنَّة: 10].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله: ﴿وَلَا يَتْرُكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26]، فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي.

والإرادة نوعان:

فالكونية: كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16].

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: 16].

وقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُنَوِّحَكُمْ﴾ [هود: 34].

والدينية: كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْإِسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْفُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27].

فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولو وقعت التوبة من جميع المكلفين⁽¹⁾، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل متلازمتان أم لا؟

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً ودينياً، وقد يأمر بما لا يريده كوناً وقدرأً، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له ديناً لا كوناً، وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كوناً وقدرأً، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدرأً، وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمداً ﷺ ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح⁽²⁾.

(1) الجامع الصحيح في القدر، ص: 131.

(2) المصدر نفسه، ص: 131.

والأمر الكوني: كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يس: 82].

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٦) [القمر: 50].

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: 47].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 21].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، فهذا أمر تقدير كوني، لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح⁽¹⁾.

والأمر الديني: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]. وهو كثير⁽²⁾.

وأما الإذن الكوني: كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 102]، أي: بمشيئته وقدره، وأما الديني، كقوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 5] أي: بأمره ورضاه.

(1) الجامع الصحيح في القدر، مقبل الوادعي، ص: 132.

(2) المصدر نفسه، ص: 133 نقلاً عن شفاء العليل لابن القيم.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ﴾ ﴿٥٩﴾ [يونس: 59].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

وأما الجعل الكوني: كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى آذَانٍ قُمْحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: 8، 9].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ الْيَقِيْنَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُوْنَ﴾ [يونس: 100].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: 72] وهو كثير.

وأما الجعل الديني: كقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْدَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَآرٍ﴾ [المائدة: 103] أي: ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له، واقع بقدره ومشيتته، وأما قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ أَلْبَتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97].

فهذا يتناول الجعلين، فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله⁽¹⁾.

(1) الجامع الصحيح في القدر، ص: 134.

وأما الكلمات الكونية: كقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33].

وقوله: ﴿وَوَعَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: 137].

وقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق»⁽¹⁾. فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني: كقوله: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الثوبة: 6] والمراد به القرآن وقوله ﷺ في النساء: واستحللتهم فروجهن بكلمة الله⁽²⁾، أي: بإباحته ودينه، وقوله: ﴿فَأَنذِرْهُم بِمَا كَانُوا لَكُم مِّنَ الْإِسَاءَةِ﴾ [النساء: 3].

وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ [التحریم: 12]. فكتبه كلماته التي يأمر بها، وينهى ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون.

وأما البعث الكوني: كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَشَأًا عَلَيْهِمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5].

وقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 31].

(1) الجامع الصحيح في القدر، ص: 134.

(2) المصدر نفسه، ص: 134.

وأما البعث الديني: كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2].

وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213].

وأما الإرسال الكوني: كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزَعُهُمْ أَذَا كُنُوا بِرَأْسِ الْجِبَالِ كَانُوا بِخُدُودِهَا لَمَّاعِينَ﴾ [مريم: 83].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ [الفرقان: 48].

وأما الإرسال الديني: كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: 33].

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْنِكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [الزمر: 15].

أما التحريم الكوني، كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفصص: 12].

وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: 26].

وقوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينِهِ أَهْلَ كَنْهَاءَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٥] [الأنبياء: 95].

وأما التحريم الديني: كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَتَّةُ﴾ [المائدة: 3]، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ مَيْدُ

أَلَبَّيْ مَا دُمْتُ حُرْمًا ﴿96﴾ ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275].

وأما الإيتاء الكوني:

كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247]،
وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26].

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً وديناً وتوفيقاً وإلهاماً⁽¹⁾.

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر ودين الرسل، وأتباعهم دين الأمر فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره، ويقولون: نحن واقفون مع مراد الله، نعم مع مراده الكوني لا الديني، ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني، ولا يكون ذلكم عذراً لكم عنده إذ لو عذر بذلك لم يذم أحداً من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن في خلقه عاصٍ ولا كافر⁽²⁾.

(1) الجامع الصحيح في القدر، ص: 137.

(2) المصدر نفسه، ص: 137.

المبحث الرابع

لا حول ولا قوة إلا بالله

إن كلمة الحقولة «لا حول ولا قوة إلا بالله» هي من الأذكار العظيمة القدر، الرفيعة المنزلة، العالية المرتبة، ولها من الفضائل والفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه ويحثهم عليها، وتأتي هذه الكلمة في الأذكار المطلقة والمقيدة في مواضع كثيرة⁽¹⁾.

أولاً : فضلها :

فمما يدل على فضلها وعلو منزلتها، ومما يرغب في الإكثار من قولها باللسان وإمرارها على الجنان أمور :

1 - إخبار النبي ﷺ عنها بأنها كنز من كنوز الجنة: فعن أبي موسى الأشعري ؓ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم، قال: وأنا خلفه وأنا أقول: قل، لا حول ولا قوة إلا بالله⁽²⁾.

(1) المباحث العقيدية (2 / 887).

(2) البخاري، ك المغازي (4 / 1541) رقم 39668.

قال النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»: قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئاً عن الأمر ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم⁽¹⁾.

والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم⁽²⁾.

وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يوجب الإعانة ولهذا سنّها النبي ﷺ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة، فيقول المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقال المؤمن لصاحبه: «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» [الكهف: 39]، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقوله: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر ويقول لا قوة إلا بالله⁽³⁾.

2 - ومن فضلها أن الله سبحانه يصدق قائلها ومن صدقه الله تعالى على ما يقول فليبشر بالخير بإذن الله⁽⁴⁾، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر، صدقه ربه، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله

(1) شرح صحيح مسلم (17 / 26).

(2) مجموع الفتاوى (13 / 321).

(3) المصدر نفسه (13 / 321).

(4) المباحث العقيدية المتعلقة بالآذكار (2 / 891).

وحده لا شريك له، صدقه ربه قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بي⁽¹⁾.

3 - من فضلها أن من قالها حين يخرج من بيته مع البسملة والتوكل على الله أنه يوفى ويكفى ويُهدى، فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج من بيته فقال بسم الله وتوكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له: حسبك قد كفيت وهديت ووفيت فيلقى الشيطان شيطاناً آخر فيقول له: كيف لك برجل قد كفي وهدي ووفى»⁽²⁾.

4 - ومن فضائلها أنها من الباقيات الصالحات ومن أحب الكلام إلى المولى جل جلاله قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: 46].

فقد ورد في تفسير هذه الآية عن جمع من الصحابة والتابعين أن الباقيات الصالحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽³⁾، وسئل ابن عمر ؓ عن الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽⁴⁾، وعن ابن عباس ؓ قال: هي ذكر الله،

(1) سنن الترمذي، ك الدعوات (5/ 492) رقم 3430.

(2) سنن أبي داود رقم 5095، قال الترمذي حسن صحيح.

(3) تفسير ابن جرير الطبري (15/ 255).

(4) المصدر نفسه (15/ 255).

قول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله والقيام والصلاة والحج والصدقة والعنق والجهاد وأعمال الحسنات وهي الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة⁽¹⁾. وقد ورد في فضلهم أي: الكلمات الباقيات الصالحات أنهن يكفرن الذنوب، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرَتْ عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زيد البحر»⁽²⁾.

5 - ومن فضائلها أنها غراس الجنة فقد ثبت أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به مر على إبراهيم عليه السلام فقال: من معك يا جبريل؟ فقال: هذا محمد، فقال له إبراهيم: أوْمُرْ أُمَّتَكَ فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، قال: «وما غراس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله⁽³⁾.

ثانياً، معنى لا حول ولا قوة إلا بالله،

الحول: الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا

(1) المباحث العقدية (2/ 892).

(2) سنن الترمذي رقم 3460 وحسنه.

(3) ابن حبان في صحيحه (3/ 103) رقم 821.

قوة على طاعته إلا بمعونته، وحُكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب⁽¹⁾.

وقال الإمام الطحاوي في تفسيره لمعنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»: لا حيل ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضائه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]⁽²⁾.

ولا شك أن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله أوسع وأعم مما ذكر، فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال، والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدلّت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله، ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، والذي يدل عليه اللفظ، أن الحول لا يختص بالحوال عن المعصية وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.. وكذلك لفظ القوة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الرؤم: 54].

ولفظ القوة لا يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره فهو

(1) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (4/ 87).

(2) العقيدة الطحاوية، ص: 444. 445 مع شرحها لابن أبي العز الحنفي.

قدرة أرجع من غيرها أو القدرة التامة ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة، فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمال وأكمل فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى وهذا باب واسع⁽¹⁾.

ولكلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله» تأثير في دفع داء الهم والغم والحزن، بسبب ما فيها من كمال التفويض والتبرئ من الحول والقوة إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شيء منه وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء وفي الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان والله المستعان⁽²⁾.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، دليل على إثبات القدر⁽³⁾.

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه هذه الكلمة العظيمة في أبواب عدة من صحيحه، ومن ذلك: كتاب القدر ومعروف أن فقه الإمام البخاري كما يقال في تراجمه مما يدل على أنه . رحمه الله . ما وضعها في كتاب القدر إلا لدلائلها عليه⁽⁴⁾.

إن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله دخلت من باب القدر لكونها تدل على مرتبة من مراتبه وهي المشيئة، فقد ذكرنا أن مراتب القدر أربع مراتب ومنها: الإيمان بمشيئة الله النافذة في خلقه وأن ما شاء

(1) مجموع الفتاوى (5/ 575).

(2) زاد المعاد لابن القيم (4/ 204).

(3) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 447.

(4) المباحث العقدية (2/ 900).

الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعندما يقول العبد: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يعتقد في قرارة نفسه أنه لا يستطيع التحول من أمر لآخر إلا إذا شاء الله له ذلك وقدره له، فلا ينصرف عن المعصية إلى الطاعة إلا بمشيئة الله تعالى، ولا ينصرف من المرض إلى الصحة إلا إذا كتب الله له الشفاء وشاء له، ولا يتحول من ضعف إلى قوة، ولا من ذل إلى عز، ومن قلة إلى كثرة، ولا من جوع إلى شبع ولا من فقر إلى غنى، ولا من خوف إلى أمن، ولا من شر إلى خير إلا بمشيئة الله وإرادته، فلا يتحول ويتقلب من أي حال مهما كان إلى حال غيره إلا إذا شاء له الله ذلك، كما أنه ليس لعبد في نيل مطلوب والحصول على مرغوب أو دفع مرهوب إلا إن أعانه الله سبحانه وأمدّه بقوة منه، فالعبد، بقوله لهذه الكلمة يتبرأ من حوله وقوته، ويعتقد أن الحول والقوة بالله وحده فهو سبحانه مالك الملك وخالق، بيده أمور الخلق يتصرف بهم كيف يشاء ويصرفهم حيث يشاء ويقلب أحوالهم من حال إلى حال على حسب مشيئته وحكمته وإرادته لا مانع لما قضى ولا لما أعطى، ولا معطي لما منع بيده الملك وهو على كل شيء قدير⁽¹⁾.

ثالثاً: تضمنت لا حول ولا قوة إلا بالله معان عقديّة عظيمة القدر؛ لمن فقهها غير دالّتها على القدر منها،

1 - أنها كلمة استعانة بالله العظيم، ومن استعان بالله جل جلاله، فالله سبحانه يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه. والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلّها وتعرف منزلتها وعظم

(1) المباحث العقدية (2/ 901).

شأنها من خلال سورة الفاتحة التي أمر الله سبحانه عباده أن يتعبدوه بتلاوتها يومياً مراراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فهذه الآية فيها إخلاص الاستعانة لله لأنه قدم ما حقه التأخير فأفاد حصر الاستعانة بالله وكذلك لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة تحتوي على الإخلاص لله بالاستعانة فهي تدل على ما دلت عليه⁽¹⁾.

2 - الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، فقائلها يقر ويعتقد بأن الله وحده المدبر بهذا الكون المتصرف بحكمته ومشيته فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه ومشيته، كما أنه معترف بأن من كان هذا وصفه فهو بالطبع غني عن خلقه قائم بذاته متصف بصفات الكمال من القدرة والعظمة والقوة والعزة، ومن يعتقد هذا في خالقه كان عليه لزماً أن يؤلهه ويعبده ويقصده ويلتجئ إليه ولا يرجو أحداً سواه، ولا يدعو أحداً إلا هو، لأنه بيده التصرف التام وله الملك وهو على كل شيء قدير⁽²⁾.

3 - التوكل على الله وتفويض الأمور إليه والاستسلام والإذعان له مع إظهار الذل والافتقار له سبحانه فهو الغني والعبد فقير إليه لا يملك من أمره شيئاً.

ويجدر التنبيه هنا على أمر يُخطئ به بعض الناس ألا وهو: استعمالهم هذه الكلمة في غير موضعها اللائق بها، ونجم ذلك عن

(1) المباحث العقدية (2 / 902).

(2) المصدر نفسه (2 / 903).

عدم معرفة معناها ومحتواها فيجعلونها كلمة استرجاع لا كلمة استعانة بالله⁽¹⁾.

رابعاً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية قديم، قدم بدء الخليقة، وأول من قال به إبليس أعاذنا الله منه، فإنه بعد أن رفض أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام واستحق غضب الله عليه وطرده من رحمته وإخراجه من الجنة، لم يندم، ولم يتب، ولم يرجع على نفسه باللائمة، بل زاد عصياناً وتمرداً، بإضافة غوايته إلى الله، فقال: ﴿رَبِّ يَأْأَغْوَيْنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39]. وهكذا تلقى كثير من البشر هذه الحجة الباطلة عن إبليس فغرقوا في الضلال ووقعوا في المعاصي والآثام ثم احتجوا على ذلك بالحجة الإبليسية، وقالوا: هذه شيء قدّره الله علينا فحملوا مسؤولية خطاياهم على ربهم، وهو الذي نهاهم عن تلك المعاصي، وقد أخبر الله عن أمثال هؤلاء⁽²⁾:

. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: 148].

. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ

(1) الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالاتها العقدية، عبد الرزاق العباد، ص: 83.

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة، د. سعيد مسفر القحطاني، ص: 253.

دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْبَيِّنَاتِ ﴿٢٥﴾ [النحل:
35] .

. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا
أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا
عَبَدْتَهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:
19 . 20]، وقد رد الله في القرآن الكريم هذه المزاعم، ووصف
أصحابها بالكذب والتخرف، صحيح ما يجري في الكون يجري
بمشيئة الله الكونية، ويقع وفقاً لإرادته، ولكن دعوى المشركين أنهم
وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب تلك المشيئة الإلهية والإرادة الإلهية،
باطل ومردود لما يأتي.

1 - إن مشيئة الله غيب لا يعلمه أحد قبل أن يقع، فمن أين
لهؤلاء المشركين أن يعلموها ويحيلون عليها شركهم وضلالهم، كما
أن علم الإنسان محدود، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يعلم ما قدره الله
في المستقبل من خير أو شر إلا بعد وقوع أحدها له أو عليه، أما قبل
ذلك فلا علم لأحد بما سيحصل ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34] فلو
كان عند المشركين من حجة مقنعة بأن الله راضٍ بذلك فليظهروها،
وإلا فإن دعواهم معرفة الغيب وكشف أسرار كذب على الله،
ودعوى باطلة لا برهان لهم عليها.

2 - إن الله أذاق الكافرين السابقين ألوان العذاب وأصناف

العقاب جزاء على كفرهم، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من جرائم وآثام وكفر وشرك لما عذبهم الله لأن الله عدل لا يظلم أحد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

3. إن الله خلق البشر وفطرهم على الاستعداد للخير والشر والهدى والضلال، ومنحهم العقل لترجيح واحد من هذه على الأخرى، وبَيَّن لهم الآيات الكونية الهادية إلى الحق والخير، وأرسل الرسل وأنزل الكتب والشرائع كموازين ثابتة تعين الإنسان في اختياره، ومن ثم فلا حجة للإنسان بأن وقوعه في الضلال وانحرافه عن الحق لم يكن باختياره وإرادته، أو أن قدر الله هو الذي أضله⁽²⁾، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7، 8].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: 3]، ويقول سبحانه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البالد: 10]، فكل إنسان إذن مسؤول محاسب على عمله من خير وشر⁽³⁾.

4. إن سلف هذه الأمة قد فهموا القدر على حقيقته، ومن ثم

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي، ص: 385.

(2) المصدر نفسه، ص: 210.

(3) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، سعاد ميبر، ص: 210.

ردوا ما تعلل به أصحاب الأهواء والشهوات. ويروى أن أحد اللصوص سرق في عهد عمر رضي الله عنه فأحضر بين يديه فسأله عمر قائلاً: لم سرت؟ فقال: قدر الله ذلك. فقال عمر رضي الله عنه: اضربوه ثلاثين سوطاً ثم اقطعوا يده. فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله، ويقول الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى، بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه، وخلقها خيراً وشرها⁽¹⁾.

5. إن هذا القول «الاحتجاج بالقدر» يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميز الأبرار من الفجار، ولا أهل الجنة من أهل النار، فإن هؤلاء جميعاً قد كتب مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿أَنجَلُ الْمُنَافِقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ [القلم: 35، 36].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٧٨) [ص: 28].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

(1) صحيح مسلم، شرح النووي (1/ 154. 155).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 63.

أَلَجَنَتْهُمُ أَفْئِدَتُهُمْ فَأَتَوْنَ الْكَوْنُ ﴿٢٠﴾ [الْخَشَرَةُ: 20] .

وملخص القول في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

لو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لقبل إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب أحد من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهده في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر⁽¹⁾، وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول⁽²⁾. وأخيراً فإن المحتج بالقدر يكذب واقع دعواه، إذا أنه لا يعلل بالقدر كل أحواله، وإلا لو كان صادقاً في زعمه لرضي بكل ما يقدره الله عليه من فقر وذل وجوع وذهاب مال، والواقع يشهد بعكس ذلك ويؤكد سعيه بكل الوسائل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع. . الخ ولو كان المحتج بالقدر صادقاً في احتجاجه للزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون⁽³⁾، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم ببغضونه ويعادونه، وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحداً ولا

(1) مجموع الفتاوى لا بن تيمية (8/ 264-265).

(2) مجموع الرسائل والمسائل (5/ 139).

(3) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 387.

يبغضوا أحداً، ولا يقولوا في أحد: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحد فعله، وفعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل... وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إنَّ القدر حجة للعبد⁽¹⁾.

- هل احتج آدم عليه السلام على الذنب بالقدر؟

ومن أشهر الأدلة التي يستدل بها المحتجون بالقدر على توسيع تفريطهم وعصيانهم حديث احتجاج آدم وموسى . عليهما الصلاة والسلام . وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فجح آدم موسى ثلاثاً»⁽²⁾؟

لقد تسرع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سنداً للاحتجاج على الذنوب بالقدر، وتمحل آخرون تأويلات غير مقبولة، واتخذة آخرون تكأة يتوكؤون عليها، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام والديث لا مطعن في صحته، فقد رواه الشيخان عن حديث أبي هريرة وروي في السنن بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه⁽³⁾ والحديث يشير إلى أمور في غاية الوضوح منها:

(1) مجمع الفتاوى ابن تيمية (8 / 263).

(2) مسلم ك القدر رقم 13 (4 / 4042. 4043)، البخاري، ك القدر (7 / 214).

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 66

1 - أن الحديث ليس فيه أن موسى لام آدم على المعصية، وإنما فيه أنه قاله: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، وظاهر هذا القول أنه لومه على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة، فيكون اللوم على المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، لا المعصية نفسها⁽¹⁾، والمؤمن مأمور على نزول المصائب أن يرجع إلى القدر ويحتمي به، فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ويترك المحذور، ويسلم للمقدور، ولهذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند حلول ما نكره: قدر الله وما شاء فعل⁽²⁾.

2 - أن موسى ﷺ أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله أنه تاب على صاحبه، واجتبه بعده وهداه ﴿ثُمَّ اجْبَنَّهُ رَبُّهُ فَوَاقَبَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122] ، وموسى ﷺ ومن هو دون موسى منزلة يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة، لا يبقى وجه الملامة على الذنب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له⁽³⁾، وآدم أعلم بالله جل شأنه من أن يحتج بالقدر على الذنب، كيف وقد اعترف به واستغفر منه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَكُ تَقْوِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةً لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [الأعراف: 23]⁽⁴⁾.

3 - إن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج

(1) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1 / 425).

(2) مسلم رقم 2664.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 67.

(4) المصدر نفسه، ص: 67.

بالقدر على المعصية تبريراً لموقف الإنسان واستمراراً فيها فغير جائز⁽¹⁾.

4 - من مسائل القدر في هذا الحديث، سبق الكتاب، أي كتابة كل شيء قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول ﷺ بقوله: «فَجَحَّ آدم موسى، ويكررها ثلاثاً»، ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ، بل يلفت النظر إلى شمول و حجة آدم ﷺ⁽²⁾.

. الحكمة من وجود المعاصي والكفر:

لوقوع المعاصي والكفر حكم كثيرة منها:

1 - إتمام كلمة الله تعالى حيث وعد النار أن يملأها قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخْلَفُونَ﴾ ﴿١١٩﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118-119].

2 - ظهور حكمة الله تعالى وقدرته حيث قسم العباد إلى قسمين: طائع وعاص، فإن هذا التقسيم يتبين به حكمة الله ﷻ فإن الطاعة لها أهل هم أهلها، والمعصية لها أهل هم أهلها قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآلَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ [محمّد: 17] فهؤلاء أهل الطاعة.

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 159).

(2) القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن، ص: 48.

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 125].

- وقال: ﴿قَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5] ، وهؤلاء أهل المعصية، ويتبين بذلك قدرته بهذا التقسيم الذي لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272] .

- وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصاص: 56].

3 - لجوء العبد إلى ربه بالدعاء أن يباعد بينه وبين المعصية والدعاء عبادة لله تعالى.

4 - ومنها أن العبد إذا وقع في المعصية ومن الله عليه بالتوبة ازداد إنابة إلى الله وانكسر قلبه وربما يكون بعد التوبة أكمل حالاً منه قبل المعصية حيث يزول عنه الغرور والعجب ويعرف شدة افتقاره إلى ربه⁽¹⁾.

5 - ومنها أن يتبين للمطيع قدر نعمة الله عليه بالطاعة إذا رأى حال أهل المعصية قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164] .

6 - ومنها إقامة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه

لولا المعاصي والكفر لم يكن جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلى غير ذلك من الحكم والمصالح الكثيرة والله في خلقه⁽¹⁾ شؤون.

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (1 / 171).

المبحث الخامس

الهداية والإضلال

إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هي قلب أبواب القدر ومسائله، لأن أعظم نعمة الهداية، وأعظم مصيبة هي مصيبة الضلال⁽¹⁾.

أولاً: مراتب الهداية:

1 - الهداية العامة :

وهي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥١﴾﴾ [طه: 50] .

وهذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق، كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى⁽²⁾.

(1) شفاء العليل، ص: 117 لابن القيم.

(2) المصدر نفسه، ص: 117 إلى 129.

2 - هداية الإرشاد والدعوة والبيان :

وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

- قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

- وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47].

- وقال تعالى: ﴿وَعَدَيْنَا النُّجْدَيْنِ﴾ [البند: 10].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

- وقال تعالى: ﴿كَكَادُ تَمَيُّزٍ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَلَمَهُمْ خَزَنَتُنَا آتَتْهُمْ نَذِيرٌ﴾ [A] قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ [الملك: 8-9].

وهذه الهداية هي التي أثبتها الله ﷻ لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

وهي ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة⁽¹⁾، وهي مرتبة عامة يشترك فيها الناس جميعاً،

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة بنت محمد القحطاني، ص: 508.

ولكنها لا يلزم عنها هداية التوفيق واتباع الحق، فكثير من الذين أرسل إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب، لم يؤمنوا وآثروا طرق الغواية ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14] أي جحدوا بالآيات بعد تيقنهم من صحتها وهذا النوع من الهداية عام للمؤمن والكافر⁽¹⁾.

وحجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور وهي:

في الآيات السمعية وهي متمثلة فيما يلي:

إرسال الرسل.

إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

- البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم ودليل هذه المرتبة من سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 382.

يَأْتِيَنَّ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿ [يونس: 13].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿ [يونس: 74]، نفي لهداية التوفيق عنهم لظلمهم وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ [نضلت: 17]. فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق⁽¹⁾.

3 - هدية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل⁽²⁾:

وهذه لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ [الفصص: 56].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [الأنعام: 39].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيمٍ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [إبراهيم: 4].

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 510.

(2) العقيدة الإسلامية أحمد جلي، ص: 382.

. وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَمْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ طَرَفٍ
وَحْتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23] .

. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19] .

. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: 25] .

. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33] .

. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ
يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ
فَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: 35] .

. وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: 40] .

. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغِي عَلَىٰ قُلُوبِ
الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 74] .

. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أُمُورَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88] .

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: 99-100].

والواقع أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا في الإنسان ابتداء خلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سبباً في الغذاء والماء سبباً للري، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسباباً توصل إلى الهداية وأسباباً تقود إلى الضلال، فالهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية وهذا المعنى واضح جداً في الآيات القرآنية مثل:

- قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الزهد: 27].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69].

- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَتَدُوا زَادَهُمُ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ﴿٧٧﴾﴾ [محمّد: 17].

فهذه الهداية لله للناس بمعنى لطفه بهم وتوفيقهم للعمل الصالح إنما هي ثمرة جهاد للنفس، وإجابة إلى الله واستمساك بإرشاده ووحيه⁽¹⁾.

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 383.

وفي الإضلال يقول تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا مِّنْ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَفْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ مِثْقَلُهُمْ خِيَارٌ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[البقرة: 26-27].

- وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٧) ﴿[إبراهيم: 27].

- وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّكْثِرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: 35).

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: 5).

- وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧) ﴿[المطففين: 14].

- وقال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: 155).

فسبب الضلال هو الزيف، والخروج عن تعاليم الله والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حجة، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل وما أمر الله به أن يقطع، والإفساد في الأرض، والكفر واقتراف الآثام، فهذه من الأسباب التي أضلت الناس وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، بمقتضى نظامه سبحانه في ارتباط الأسباب بمسبباتها وهذا

ونحوه كثير في كتاب الله ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِكُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179⁽¹⁾].

4 - الهداية إلى طريق الجنة:

وهذه الهداية تكون في الآخرة بعد الحساب والجزاء ودليلها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: 9].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُعْطِلَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [سجدة: 18]. وَيُصْلِحُ بِأَلْمَمِ ﴿٥-4﴾ [محمد: 5-4].

وهذه الهداية حاصلة لهم بعد قتلهم، فدل على أن المراد بها هداية إلى طريق الجنة على القول الراجح⁽²⁾.

ثانياً: أسباب الهداية: كثيرة منها:

1 . المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية:

الفطرة الإنسانية مفطورة على الإقرار بالله وإفراده بالربوبية والألوهية، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالألوهية محبة

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 384.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 512.

له، متعبدة، لا تشرك به شيئاً⁽¹⁾، وأصل هذا العلم فطري ضروري وأشد رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي أن الجميع لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف قد تعرض عنها أكثر الفطر، أما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة⁽²⁾، فالإقرار بالله هو أرسخ المعارف، وأثبت العلوم، وأصلح الأصول⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿فَأَنفَع وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٠) مُبِينٌ إِلَيْهِ وَانْقُضَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[الزوم: 30-31].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (٧٧) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٧) وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَنْبِيَاءَ وَلَمَّا نَسُوا مَا كُنُوا فَعِلًا قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَانْصَرَفُوا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ وَلِلَّهِ الْحُكْمُ وَالْإِلَهَ الْأَحَدُ الْقَدِيمُ﴾ (١٦٤) [الأعراف: 172-174].

عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكون أنتم

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8/ 205).

(2) المصدر نفسه (2/ 16).

(3) السنن الإلهية د. شريف الشيخ، صالح (1/ 209).

تجدعونها»، ثم يقول: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرِ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِلُ
لِخَلْقِ﴾ [الزوم: 30]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن عمار عن النبي ﷺ فيما
يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء
كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت ما
أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»⁽²⁾.

وهذا صريح في أنه سبحانه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين
اجتالتهم بعد ذلك⁽³⁾.

وقد فطر الله ﷻ الإنسان أيضاً على معرفة الحق ومحبه له،
وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم، يمكنه أن يتوصل إلى سعادة الدنيا
والآخرة، وجعل في فطرته محبة ذلك، فإذا نظر الإنسان فيما جاء به
الرسول ﷺ أو في حاله في آياته أو نحو ذلك من شؤون يحصل له
العلم والإقرار بالنبوة، ثم إذا قوي النظر في أحواله حصل له من
اليقين الضروري الذي لا يمكن دفعه⁽⁴⁾.

فلا شك أن الإيمان والاهتداء هو الأصل، وأن الكفر والضلال
هو الطارئ الذي يطأ على النفس لسبب من أسباب الضلال⁽⁵⁾.

وقد أشارت الآيات والأحاديث التي أوردتها إلى بعض هذه

(1) البخاري، فتح الباري (8 / 512)، مسلم (4 / 2047).

(2) مسلم، ك الجنة وصفة نعيمها (4 / 2197).

(3) شفاء العليل، ص: 595.

(4) مجموع الفتاوى لابن تيمية (2 / 72).

(5) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 272.

الأسباب، فأشارت الآية الأولى أن الذي يصرف الفطرة عن الإيمان هو عدم العلم، فأشارت الآية الثانية إلى الغفلة والتقليد، وأنهما يصرفان الفطرة عن الإيمان بالله ورسوله بعدما أقام عليه الحجة بالفطرة والرسالة ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِفِينَ * أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: 172 . 173].

وأشار الحديث الأول إلى أثر التربية والعادة، وأن من لا يستخدم عقله ويهتدي بالدين الحق الذي يرشده إليه العقل والعلم، بل يطيع والديه، وإن أمراه بالضلال⁽¹⁾. وأشار الحديث الثاني إلى أثر الشياطين في تزوين الباطل في نفوس الناس وإضلالهم بذلك⁽²⁾.

إن أول أسباب الهداية، هو إبقاء هذه الفطرة نقية صافية تتلقى وحي الله وتستجيب له⁽³⁾.

2 استعمال السمع والبصر والعقل:

إن الله ﷻ وهب الإنسان هذه النعم وامتنّ عليه بها، وذلك لما لها من غايات سامية، منها النظر والتفكر في آيات الله المرئية، والاستماع والتدبر في آيات الله المسموعة⁽⁴⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 273.

(2) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1/ 211).

(3) المصدر نفسه (1/ 211).

(4) منهج التربية الإسلامية محمد قطب (1/ 77).

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
[التحل: 78] .

وقد جعل الله الإنسان مسؤولاً عن استعمال هذه الملكات والمواهب وعن حسن توجيهه لها إلى ما خلقت له، قال تعالى:
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36] .

وقد مضت سنة الله أن الإنسان إذا أحسن استخدام مواهبه من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات وبيانات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص⁽¹⁾ .

وبين ﷺ في آيات كثيرة أن الذين ينتفعون بالنظر في هذا الكون ومظاهره هم الذين يمعنون النظر والتفكير والتدبر بعقولهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرِّكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] .

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٧٩) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُودِهِمْ وَيَتَنَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب (2/ 1821).

سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿آل عمران: 190-191﴾ .

إن الله ﷻ وهب الإنسان من القوة والملكات ما جعله طريقاً إلى هدايته إذا أحسن استخدامه، فاستعمال السمع والبصر والفؤاد في النظر في آيات الله، والتفكير في دلالاتها من أول سبل الهداية إلى معرفة الله وصفاته، وإلى الإيمان بصدق رسله، وإلى مزيد من ذلك الهدى بعد الإيمان⁽¹⁾.

3 العلم:

ومن أسباب الهداية حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال: العلم، وقد كانت أول آية نزلت في القرآن الكريم في الدعوة إليه: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] .

وتوالى آيات القرآن الكريم بما يضيق المجال عن حصره في الدعوة إليه بيان فضل العلماء.

- قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] .

- وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] .

- وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9] .

- وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾

(1) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1 / 226).

[مخّمّد: 19] ، فأمر بالعمل بعد العلم⁽¹⁾ .

وقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية في آيات كثيرة، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله وحسن النظر في آياته والاعتبار بها وإدراك ما فصله الله منزلاً على رسوله وشهود وحدانيته ﷻ⁽²⁾ .

قال الله ﷻ مبيناً أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات الماثرة في الكون، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته، فيخشونه فيهديهم الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ الْأُنْفُسُ الَّتِي أُفْتِنُوا بِهَا لَأَنْتَفِيحًا أَفَلَا تُفَكِّرُونَ كَذَلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝۱۸﴾ [فاطر : 27، 28]، فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس هم العلماء، وهم الذين يخشونه حق خشيته، لأنهم العارفون به وبصفاته جل جلاله، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل⁽³⁾ .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 227).

(2) المصدر نفسه (1 / 228).

(3) المصدر نفسه (1 / 328).

مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ [يونس: 5].

والعلماء هم أكثر استفادة وإدراكاً وتعاضلاً واعتباراً بالأمثال التي يضربها الله ﷻ في كتابه العزيز، ولأن امتلاكهم الأداء التي يعرفون بها عظمة وصدق هذه الأمثال، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: 43] الذين يعقلون عن الله ﷻ وأما مغلقي القلوب فيتخذونها مادة للسخرية والتهكم⁽¹⁾.

كما أنهم الأكثر استفادة من تبیین الآيات القرآنية وتوضيحها وتفصيلها، وغير العالم يستوي عنده الإجمال والتفصيل، لأنه يملك لا الأداة التي يميز بها بين ذينك الأمرين قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: 32].

- وقال تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوْهُمْ فِي الِذِينَ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الثوبة: 11].

- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فَعَلَّمَتِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97].

كما أن العلماء هم أكثر تأثراً بكلام الله ﷻ وأسرع استجابة له وأعظم خشوعاً وإخباتاً لعظمته، وجلاله، وأعظم إدراكاً لمحكمه

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 329)، زاد المسير لابن الجوزي (6/ 273).

ومتشابهه مما يجعلهم أكثر تسليماً وإذعاناً لما يتضمنه من عقائد وأحكام⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٧٩﴾﴾ [الإسراء: 107-109].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: 7].

وإن العلماء هم الذين يعرفون قدر كلام الله وعظمته وإعجازه، وإن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فيدفعهم ذلك إلى الإيمان والتسليم والإذعان والاستفادة مما حوى من هدى وبيان⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِمِيزَانٍ إِذَا لَزَبَ أَلْمُحْتَلُونَ ﴿١٨٠﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [العنكبوت: 48-49].

والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته، ووسوسته

(1) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1/ 230).

(2) المصدر نفسه (1/ 231).

وذلك لعلمهم بمدخله وأحابيله، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيماناً و يقيناً وتسليماً بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يحسبون أنهم يحسنون.

قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: 53 . 54].

- وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِإِقْسَاطٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18].

ولا تدل هذه الآية الكريمة على مجرد تشريف الله سبحانه لأهل العلم حيث جمع شهادته بالتوحيد إلى شهادة ملائكته وشهادتهم بذلك، ولكنها تدل كذلك على أن علمهم هو الذي يؤهلهم إلى شهود وحدانية الله ﷻ وانفراده بالملك والتدبير، فالعلم من أول أسباب الهداية إلى معرفة طريق الله، والاستزادة منه سبيل إلى المزيد من هداه⁽¹⁾.

4 . الإيمان :

إن في كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وفي كل كائن من الكائنات لآية باعثة على الهدى، وإن في ذلك التنسيق البديع والتوافق بين سائر الكائنات لتوائم حياة الإنسان وسعادته فوق الأرض

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 232).

لآيات وآيات كثيرة تبعث على الاهتداء إلى الحق، وإن في القرآن الكريم وما حوى من دلائل وبيّنات وما جاء فيه من موعظة وآيات تحيي القلب وتشفي الصدور وتهدي إلى الحق والصراط المستقيم، ولكن هذه الآيات وتلك لا تتضح ولا ينتفع بها إلا القلب المؤمن، فالكفر حجاب وحاجز كثيف يمنع من دخول نور القرآن في القلب ويمنع كذلك من الانتفاع بالآية الهداية في هذا الكون، فإذا زال هذا الحجاب وانكشف ذلك الحاجز انتفع الإنسان بتلك الآيات الكونية، وانفتحت أمامه أيضاً كنوز القرآن من الهدى والمعرفة وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن المؤمن هو الذي ينتفع ويستفيد من الذكرى ومن هدى القرآن، ومن الآيات الباعثة على الهدى في هذا الكون:

- قال تعالى: ﴿مَلَسَ بِكَ إِلَهٌ بَتَّ أَلْفُ عُرْوَةٍ وَكَتَابٍ مُبِينٍ ۖ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [النمل: 1 . 2].

- وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [يونس: 57].

- وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [الأعراف: 203].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۖ﴾ [النحل: 102].

وقد أشارت هذه الآيات . وغيرها من الآيات في هذا المعنى . إلى معنيين رئيسين هما:

الأول: وهو أن القرآن الكريم فيه بيان وإرشاد لطرق الهداية،

وإنه زاجر بما فيه من الترغيب والترهيب، وارتكاب المعاصي، وإنه شافٍ لما في الصدور من الأمراض المفضية إلى الهلاك والشك والشرك والنفاق والضلال، وأنه هدى من الضلالة إلى الرشده والحق، وأنه يزيد المهتدي هدى، وأنه تثبيت أيضاً للمهتدين على الهدى، وهو أنه رحمة للناس بكل ما حوى من أوامر ونواه واعتقادات وعبادات، وأنه نجاة لمن آمن به من عذاب الله وسبب في فوزه ودخوله الجنة⁽¹⁾.

الثاني: أن المؤمنين هم الذين يتفعلون بهدي القرآن ويستفيدون مما حوى فيهتدون بهديه ويسيرون وفق هداه، فيهتدون إلى صراط مستقيم دون غيرهم من الجاحدين والكافرين به الذي هو عليهم عمی وضلالة وغم وخزي، وفي الآخرة جزاءهم على الكفر به الخلود في لظى⁽²⁾، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات منها:

- قال تعالى: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44].

- وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الْفَٰكِلَآئِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنَهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٧٠) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ

(1) تفسير الطبري (9/ 162)، تفسير الألوسي (11/ 139)، زاد المسير (3/ 312)، تفسير القرطبي (5/ 3793).

(2) تفسير الطبري (11/ 124)، أضواء البيان (1/ 107).

كَفَرُونَ ﴿ [التوبة: 124-125].

هذا بخصوص هداية القرآن وأن المؤمنين هم المنتفعون بهديه، وما حوى من آيات، وأما عن الآيات الكونية وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بها ويهتدون بما ترشد إليه من التوحيد، ومن إضافة صفات الكمال لله ﷻ، فقد جاء في مثل قوله سبحانه:

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ [النحل: 79].

إن مشهد الطير وهي تحلق في جو السماء ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ مشهد عجيب بديع ذهب ما به من عجب: الإلفة والتكرار، ولكن قلب المؤمن هو الذي يشعر بإبداع الخلق والتكوين، ويدرك ما فيه من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر، ويدرك قدرة الله وإبداعه وحكمته فيما أودع فطرة الطير من سنن تمكنها من الطيران، وما أودع الكون من حولها من سنن مناسبة لهذا الطيران⁽¹⁾.

ومثل قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْسَكُنَّ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ [الثل: 86].

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان⁽²⁾.

وقال ﷻ مبيناً انتفاع المؤمنين بما في السماوات والأرض من

(1) في ظلال القرآن (4 / 2186).

(2) المصدر نفسه (5 / 2668).

آيات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الجنات: 3].

وإذا كان الإيمان سبباً في اهتداء العبد إلى الحق، وانكشاف الحجب أمام بصيرته، فإنه كذلك سبب في هدية الله في العبد وإعانه وتوفيقه وزيادته هدى إلى الصراط المستقيم، وتثبيتته عليه، وقد جاءت آيات كثيرة تقرر هذه الحقيقة وتؤكدّها، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

- وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝﴾ [يونس: 9].

- وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَالَمُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُفْضِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝﴾ [إبراهيم: 27].

- وبين ﷺ صفات المؤمنين الذين يهديهم فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ (١) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ (٢) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ (٣) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة: 2-5].

5. الاهتداء :

من أسباب الهداية المؤدية بالعبد إلى مزيد الهدى والتثبيت على

الصرراط المستقيم: اهتداؤه إلى الإيمان، والإتيان بأسبابه، فإذا فعل العبد ذلك، هداه الله بأن خلق فيه المشيئة المستلزمة للفعل، وألهمه ووفقه للطاعات وزاده هدى وتوفيقاً، وأعانه وهو ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، كما يزيد الذين ظلموا زيادة ضلال⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: 75]، وهو من باب الجزاء من جنس العمل⁽²⁾.

كما في قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ﴾ [البقرة: 152].

- وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَعْمُرُوا اللَّهَ يَعْصِرْكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم مقررّة لهذه الحقيقة زيادة الهدى لمن اهتدى وفق سنته ﷺ في هداية من سلك سبيل الهدى وقصده⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآلَاتِهِمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17].

- وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: 76].

وإن إيراد هداية الله مرة بصيغة الماضي، ومرة بصيغة المضارع، يفيد أن هداية الله لعباده بسبب اهتدائهم أمر محقق، وسنة

(1) شفاء العليل ابن القيم، ص: 74.

(2) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8 / 206).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 239).

جارية ماضية في الذين من قبل، وهي مستمرة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿اهْتَدُوا﴾ معانٍ متعددة دلت عليها أقوال المفسرين فذهب بعضهم إلى أن المقصود من الاهتداء هو الإيمان⁽¹⁾، وجمع بعضهم بينه وبين التصديق بآيات الله، وربط بعضهم بينه بين الاتباع، وذهب فريق آخر إلى معنى ﴿اهْتَدُوا﴾ أي: قصدوا الهداية وأرادوها⁽²⁾.

وقال الطبري مبيناً اهتداء العبد وهداية الله له: ويزيد من سلك قصد المحبة واهتدى لسبيل الرشd فأمن بربه وصدق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عن نهائه عنه هدى على هداه وذلك نظير قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى فَمِمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: 124]⁽³⁾.

إن ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، والذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿وَوَإِنَّهُمْ لَتَقْوُونَ﴾، والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله، شاعراً برقابته، خائفاً من غضبه، متطلعاً إلى رضاه، متخرجاً من أن يراه على هيئة أو في حالة لا يرضاها، هذه الحساسية المرهفة هي التقوى، وهي مكافأة يؤتيها من يشاء من عباده حين

(1) تفسير الرازي (21 / 249).

(2) تفسير ابن كثير (4 / 177).

(3) تفسير الطبري (16 / 119) السنن الإلهية (1 / 240).

يهتدون هم، ويرغبون في الوصول إلى رضى الله⁽¹⁾.

6. الدعاء:

إن من أسباب الهداية حسب سنته ﷺ أن يسأل العبد ربه ذلك لأن ما يستطيعه العبد هو فعل الأسباب، وأما ما تحقق النتيجة وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، والإعانة والإلهام والتوفيق والتثبيت على الحق، فهي من شأن الله وفعله، لا يقدر على ذلك إلا هو ﷻ، فالعبد إذا فعل الأسباب التي يقدر عليها سأل الله ما لا يقدر عليه وهو الهداية، كمن يتعاطى العلاج للشفاء من المرض، ثم يسأل الله ﷻ الشفاء لأنه هو الشافي والدواء إنما هو مجرد سبب. والأسباب لا تؤدي إلى نتائجها إلا بمشيئة الله. ووفق قدر خاص لكل شيء منه سبحانه⁽²⁾.

إن سؤال العبد لله ﷻ بالهداية هو من الدعاء الذي وعد عليه بالاستجابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].
- وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ولما كان سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم من أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، فقد علم ﷻ عباده. في سورة الفاتحة. كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم، وتوحيدهم، هاتان وسيلتان إلى

(1) في ظلال القرآن (6 / 3294).

(2) السنن الإلهية (1 / 241).

مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديتهم، وهاتان الوسيلتان لا يرد معهما الدعاء⁽¹⁾.

وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية هي معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو ﷺ المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها وهو جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا إلى نبي مرسل⁽²⁾.

7. الاعتصام بالله :

ومن بين الأسباب التي رتب الله ﷻ عليها الهداية لعباده، حسب سنته تعالى في الهداية والإضلال: الاعتصام بالله وهو الامتناع بالله والالتجاء والفرج إليه والتوكل عليه في دفع شرور الكفار التي تؤدي بالمؤمنين إلى الضلال الذي يريده الكفار من المؤمنين⁽³⁾ عامة في قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: 89]. واليهود خاصة كما ورد في قوله: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99].

فقد بين ﷺ أن الاعتصام بالله من التمسك بدينه والتوكل هو

(1) مدارج السالكين (1 / 23). لابن القيم.

(2) شفاء العليل، ص: 116.

(3) مدارج السالكين (1 / 461)، تفسير الرازي (8 / 174).

العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم والعمدة في مباحدة الغواية،
والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَقْنَمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: 101].

فقوله: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101] جواب الشرط ولكونه ماضياً مع ﴿قد﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى حتى كأنه حصل وأن الهداية حاصلة حسب سنته سبحانه لا محالة⁽²⁾.

ونظراً لأهمية الاعتصام فقد جاءت عدة آيات في كتاب الله تدعو المؤمنين وتذكرهم بالاعتصام بالله وبعهده من ذلك قوله ﷺ: ﴿فَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

8. الاتباع والطاعة:

ومن أسباب الهدى حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال الاتباع، وهو السير وفق الشرع ومقتضاه، وإطراح كل شيء يخالف هدى الله ﷻ، وطاعة الله في طاعة رسول الله ﷺ، فهو المبلغ عن الله ﷻ، وبهذا فإن الاتباع يشمل الالتزام بما ورد في كتاب الله

(1) تفسير ابن كثير (1 / 378) السنن الإلهية (1 / 246).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 246).

تعالى، وسنة رسوله ﷺ، من عقائد وأحكام وأوامر ونواه وآداب وأخلاق، وكل ما يرشد إليه كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فالاتباع ليس مجرد شعار يرفع، وإنما هو تحقيق معناه في قلب المسلم وجوارحه وأفكاره⁽¹⁾.

ونجد القرآن، والسنة المطهرة، يركزان على الاتباع ويعتبرانه مناط بالهداية، والطريق الموصلة إلى السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الدلائل على ذلك أن الله ﷻ قد بين أهمية الاتباع، وأثره في الوصول إلى الهدى وتجنب الضلال عندما خلق آدم وأنزله إلى الأرض، قبل أن يرسل أنبياءه ورسله، فكان ذلك دليلاً حاسماً على ما للاتباع من أهمية ومكانة في الوصول إلى الهداية والنجاة⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿البقرة: 38﴾ .

- قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123].

وقد ربط الله ﷻ بين طاعته واتباع نبيه ﷺ وبين الهداية فجعل الطاعة والاتباع سبباً للهداية والرشاد.

- قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 348).

(2) المصدر نفسه (1 / 248).

أَلْبَلَّغُ أَلْمُبِيتِ ﴿٥١﴾ [التور: 54].

فأخبر جل ثناءه أن الهداية إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه متعلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس عليه إلا البلاغ والبيان⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15 - 16].

بَيِّنَ ﷺ في هذه الآية الكريمة أن من اتبع كتاب الله وهو ما رضىه لعباده، فإن الله ﷻ يكافئه على ذلك بثلاثة أمور:

أولها: فهو يهدي من اتبعه سبل السلام الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه⁽²⁾، فاتباع هذا القرآن يسكب السلام في الحياة كلها، سلام الفرد سلام الجماعة، سلام العالم، سلام الضمير، سلام العقل، سلام الجوارح، سلام البيت، سلام الأسرة، سلام المجتمع، سلام البشر والإنسانية، السلام مع الحياة ومع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة والسلام الذي تجده البشرية ولم تجده إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته، حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضىه طرق السلام كلها⁽³⁾.

(1) في ظلال القرآن (4/ 2528).

(2) تفسير المنار محمد رشيد رضا (6/ 350).

(3) في ظلال القرآن (2/ 863).

الثاني: أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، أي يخرجهم من الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وهدايته لهم⁽¹⁾، لأن الجاهلية كلها ظلمات، ظلمة شبهات وخرافات، وحيرة وقلق وانقطاع عن الهدى، ووحشة واضطراب قيم.

الثالث: الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين في أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيطوئ سالكه أو يضل في سيره، وقد جعل الله ﷻ اتباع رسوله فيما جاء به سواء كان مبيناً لمجمل القرآن، أو مقيداً لمطلقه، أو مخصصاً لعامه أو منشيئاً لأحكام جديدة لم ترد في القرآن، جعل ذلك سبباً من أسباب الهداية⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا جَاءَ تَهْتَدُوا﴾ [الأعراف: 158].

وأخبر النبي ﷺ أن التمسك بسنته عصمة من الزيغ والضلال والفتن، فقال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾.

وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ مبيناً أنه عليه الصلاة

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 250).

(2) المصدر نفسه (1 / 250).

(3) سنن الترمذي (5 / 44) حديث حسن صحيح.

والسلام لا يتبع أهواء الكافرين، لأن في ذلك انحراف عن الصراط المستقيم وسبيل إلى الضلال:

- قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56] ، أي: لا أتبعكم على ما تدعونني إليه لا في العبادة ولا في غيرها من الأعمال لأنها مؤسسة على الهوى، وليست على شيء من الحق والهدى، فإذا فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتدين⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115] ، أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ويتبع غير سبيل المؤمنين، هذا ملازم للصفة الأولى: ﴿تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115] أي: إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسها في صدره ونزينها له استدراجاً له وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة⁽²⁾.

ومن هذه النصوص وغيرها يتبين أن الاتباع مجبلة للهداية والرشاد، وعدم الاتباع موقع في الزيغ والضلال والهلاك⁽³⁾.

(1) تفسير المراغي (7 / 141).

(2) تفسير ابن كثير (1 / 554-555).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 253).

9. الخشية:

ومن أسباب الهداية حسب سنته ﷺ، خشية الله ﷻ والخوف منه، فإن خشيته ﷻ تجعل صاحبها أكثر من غيره استعداداً للتذكر إذا وعظ وذكر، وللاعتبار بما يرى من آيات الله في الكون والحياة وما تجري به سنته في أحداث التاريخ، وللانتفاع بالإنذار بعذاب الله في الدنيا والآخرة، والاهتداء إلى الحق إذا هدي إليه وآيات القرآن الكريم توضح هذه الحقائق أكمل توضيح، حتى أنها لتصور لنا ما يعترى الخائفين من الله إذا سمع آيات الهدى تتلى عليهم:

- قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْكَذِبِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِ﴾^(١) **نَفْسَعِرْ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ** إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ [الزمر: 23].

- وقال تعالى بعد أن ساق قصة فرعون وما آل إليه أمره من النكال والهلاك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٢) [التأوهات: 26] فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يخشى ربه فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب^(١).

- ويقول الله ﷻ عن تأثير خشيته في قبول التذكرة: ﴿طه﴾^(٣) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ [طه: 1-3].

- وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45].

(1) في ظلال القرآن (6 / 3816).

- وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ بَلَّغُوا لَعْنَهُمْ يَتْلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: 51] .

فالذي يخشى يتذكر حين يذكر، ويتقي ربه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، خشية عقاب الله ووعيده⁽¹⁾، وهذه ألوان من الهداية يؤتيه الله سبحانه من يخشاه، وقد جاء التصريح بترتيب الهداية على خشية الله دون من سواه .

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ يَفْعَلْ عَلَيْكُمْ وَلَلَكُمْ تَهْتِكُونَ﴾ [البقرة: 150] .

فالهدى إنما يكون نتيجة لخشية الله وحده دون من سواه، لأن ذلك يدفع من يخشى الله إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه، دون النظر إلى إنكار غيره ممن لا يخشاهم من البشر فطريق الهدى هو خشية الله وعدم الخشية ممن سواه⁽²⁾ .

10 . الإنابة :

ومن أسباب الهداية التي جعلها الله سبباً في زيادة الهدى لأصحابها، إنابة العبد إلى الله، إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عما سواه⁽³⁾ .

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

(1) في ظلال القرآن (5 / 2327)، تفسير الطبري (16 / 137).

(2) تفسير المراغي (2 / 18).

(3) السنن الإلهية (1 / 258).

رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مِنْ يُنِيبٌ ﴿١٦﴾ [غافر: 13].

- وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْهَا وَرَبَّتْهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِزْقًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١٨﴾ تَبَيَّرَ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ [ق: 6].

[8].

وفي قوله تعالى: ﴿تَبَيَّرَ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ [ق: 8] دلالة على الإنابة سبب في الاعتبار لكل من تحققت فيه هذه الصفة، وأن هذه الصفة لتؤهلهم لثواب الله في الدنيا والآخرة فكما يشيب الله ﷻ عباده المنيبين إليه بالجنة في الآخرة فإنه سبحانه يشبههم أيضاً بالهداية في الدنيا حسب سنته في الهداية والإضلال فيهديهم ويوفقهم إلى الرشاد وإصابة الحق، ويخلصهم لعبادته، والعمل بطاعته واجتناب ما حرمه ويوفقهم إلى تصديق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه فيما جاء به⁽¹⁾ وفي تقرير ذلك.

- قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْنِهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزهد: 27].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 17-18].

- وقال تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 261).

وَالَّذِينَ أَرْحَبْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ إِنْزَاهُمْ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى: 13].

- وأما جزاء المنيبين في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنِيبِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٢١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٢٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٢٣﴾ [ق: 31 . 33].

- ولذلك فقد أمر الله سبحانه عباده بالإجابة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ [الزمر: 53 . 54].

- وكما في قوله تعالى أيضاً: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) [الروم: 30 . 31] (١).

11 . البراء من الكافرين:

ومن الطاعات التي خصص الله ﷻ ذكرها وجعلها سبباً في زيادة هدى أصحابها، البراءة من الكافرين بالبعد عنهم والخلاص منهم والعداوة لهم وعدم موالاتهم بالتقرب إليهم أو إظهار الود لهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا (٢)، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 261).

(2) المصدر نفسه (1 / 264).

يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢١﴾ [المجادلة: 22].

وليس البراء من الكافرين هم مجرد البراء من أشخاصهم، بل
هو أيضاً البراء من أفعالهم وبغضها، وما ذلك إلا لأن ولاءهم هو
سبيل الضلال أو الضلال بعينه كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: 51].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ فَخْشُونَ فَخَشَوْا كِسَادَهَا وَمَسْكَنُكُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24].

والبراء من الكافرين يجنب صاحبه الوقوع في أعمال المعصية
والضلال التي يقترفونها، ويجنبه التشبه بأعمالهم التي تؤدي به إلى
الضلال، ثم إن البراء منهم تجنبه محاولتهم ثنيه عن إيمانه وهداه،
قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: 89]⁽¹⁾.

12 . الجهاد :

ومن أسباب الهداية الجهاد في سبيل الله، فقد رتب ﷺ الهداية

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 264).

على الجهاد، وجعله سبباً من أسباب زيادة الهدى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُتَحْسِنِينَ﴾ [الغنكوت: 69]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، ومراتب الجهاد أربع:

أ. جهاد النفس:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا بها، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل كل ذلك لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يُسمى «ربانياً» حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات⁽¹⁾.

(1) فقه الجهاد للشيخ القرضاوي (1 / 140).

ب . جهاد الشيطان مرتبتان :

إحداهما : جهاده على دفع ما يأتي إلى العبد من الشبهات والشكوك الفادحة في الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات .

فالجهد الأول : يكون بعدة اليقين ، والثاني : يكون بعدة الصبر .

- قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24] ، فأخبر أن أمامه الدين ، إنما تُنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

ج . جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب :

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس ، وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

س . جهاد الظلمة والفساق ثلاث مراتب :

وأما جهاد أرباب الظلم ، والبدع ، والمنكرات ، فثلاث مراتب :

الأولى : باليد إذا قدر ، فإن عجز ، انتقل إلى اللسان ، فإن عجز ، جاهد بقلبه ، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد : «ومن مات

ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»⁽¹⁾، ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والزاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله ﷻ بالتوحيد، والإخلاص والإنابة والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»⁽²⁾، وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا يتوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار المنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد⁽³⁾.

ثالثاً: الضلال ومراتبه:

الضلال: ضد الهدى، وضللت بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتد لمكانه، وضل عني: ضاع، وضلته: أنسيته.

(1) مسلم في الإمامة رقم 1910.

(2) فقه الجهاد للقرضاوي (1 / 41) زاد المعاد لابن القيم (3 / 1205).

(3) زاد المعاد لابن القيم (3 / 1205).

ويقال لكل عدول عن المنهج عمداً، أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً: ضلال، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً⁽¹⁾، وإضلال الله للإنسان على وجهين:

إحدهما: أن يكون سببه وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة.

الثاني: من إضلال الله: وهو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه وتعسر عليه صرفه وانصرافه⁽²⁾.

والمقصود بإضلال الله للعبد هو خذلانه وعدم توفيقه وإعانتة وعدم خلق المشيئة المستلزمة للهداية⁽³⁾.

والله ﷻ يجعل ذلك في عباده ويخلقه فيهم بأسباب تكون من قبلهم، فهم إذا سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، سده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوا، فيكون ذلك عقوبة لهم، كما يعاقبهم في الآخرة بدخولهم النار⁽⁴⁾.

ومن رحمة الله بعباده، أن ما يفعله الله ﷻ من إضلال بعض

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 100).

(2) شفاء العليل، ص: 173 ، 196 ، السنن الإلهية (1 / 101).

(3) المصدر والرقم ذاته.

(4) السنن الإلهية (1 / 101)، شفاء العليل، ص: 186 ، 209.

عباده بالطبع والغشاة والختم وغير ذلك، لا يفعله بالعبد لأول وهلة حين يأمره بالإيمان ويبينه له، وإنما يفعله به بعد تكرار الدعوة به سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منه، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوب هؤلاء العباد، ويختتم عليهم، فلا يقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرّر منهم صار طبيعة وسجية⁽¹⁾.

فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ [البقرة: 7.6].

1 - حرية العبد في اختياره للهدى والضلال:

الأعمال التي يقوم بها الإنسان وفقاً لإرادته الحرة واختياره ورضاه، فالإنسان كائن عاقل مدرك مفكر، ويتميز عن غيره من المخلوقات بحرية الاختيار.

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٨﴾ [الحج: 18].

فهذه الكائنات جميعها لا حرية لها ولا اختيار، بينما الإنسان

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 102).

الذي يعمل بمحض إرادته الحرة ومشيبته المختارة، قد يطيع وقد يعصي، وأكد القرآن أن الإنسان الذي تحمل الأمانة والتكليف زوده الله بقوى وملكات واستعدادات لتحقيق تلك الخلافة ولأداء الأمانة، فخلق لديه الاستعداد للخير والشر، للتقوى والفجور، والهدى والضلال، ومنحه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، ووهبه القدرة التي لا يمكن عن طريقها أن يحق الحق ويبطل الباطل، أن يأتي الخير ويدع الشر، وأنزل الله الكتب، وأرسل الرسل لهداية الإنسان وإرشاده لمنهج الحق والخير، وجعل في الإنسان قوة ذاتية واعية مدركة يمكن أن يستخدمها في تزكية النفس وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتغلبه على استعداد الشر، فيفلح الإنسان بهذا، وقد يظلم هذه القوة ويغطيها ويضعفها فيخيب، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 9-10].

وقد نطق القرآن الكريم، بإسناد الفعل إلى العبد في الكثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

- قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: 46].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهَبٌ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: 38].

وأثبت القرآن للعبد في غير ما آية منه في مشيئة الاختيار، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: 3].

إن الإنسان حر، لقد زوده الله بالعقل والإرادة، يختار ما يراه

من حق أو باطل، ويفعل ما يروق له من خير أو شر، فهو مزود بوسائل الإدراك، يدرك ما في الأشياء من قيم ويحكم عليها ويختار، وهو بالخيار أن يسلك طريق الحق والخير فيكون شاكراً، أو يعوج في طريقه فيجنح نحو الشر والباطل، فيكون كفوراً⁽¹⁾.

فالإنسان حر في دائرة أعماله الاختيارية والمرتبطة بالتكليف والمسؤولية، وهذه الحرية يؤكدّها ما يلي:

أ - واقع حياة الإنسان الذي يشعر بالفرق الواضح بين الأعمال الاختيارية وبين الأعمال التي تقع عليه اضطراراً.

ب - كما يؤكدّها العقل الذي يقضي بأن المسؤولية والتكليف، لا بد أن تكون منوطة باستطاعة الإنسان على الفعل أو الترك لأن من لا يملك هذه الاستطاعة فلا يصح عقلاً أن تتوجه إليه المسؤولية أصلاً.

ج - وإضافة إلى ذلك لو لم يكن الإنسان مختاراً، لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء، إذ أن كلاهما مجبر على ما قاله، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فائدة لهما، حيث أن الإنسان مسلوب الإرادة، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد، لأن تكليفه إياهم مع سلب اختيارهم يتنافى مع العدل الإلهي الذي أثبتته لنفسه، بل لو كان الإنسان مجبراً على أفعاله، لضاعت فائدة القوانين، ولبطل معنى الجزاء من الثواب والعقاب.

د - وقبل هذا كله، جاءت النصوص الشرعية تنسب العمل

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي، ص: 363.

والاختيار إلى الإنسان، وما يكتسبه نتيجة لجهد، وثبت الجزاء بالجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْنَحُكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الشورى: 30].

- وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الزوم: 41].

- وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

- وقال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢٨﴾ [التكوير: 28].

ولكن هذه المشيئة الإنسانية محدودة مرتبطة بمشيئة الله المطلقة وتابعة لها، إذ أن الإنسان يعمل أعماله الاختيارية ويمارس حريته في العمل داخل دائرة صغرى تقع ضمن دائرة كبرى، هي نطاق النظام الكوني العام، إذ أن أعماله مهما كانت، واختياره مهما كان خيراً أم شراً حقاً أم باطلاً، لن يخرج في أدائه الأخير عن السنن الكونية التي وضعها الله في الكون، وتقوم عليها قوانين الحياة البشرية ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير: 28 . 29].

فمشيئة الله ليست منفصلة عن مشيئة الله تعالى، ولا مستقلة عنها، بل أن الله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقتين: طريق

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 365.

الهداية وطريق الضلال، فإن اختار الطريق الأول، وفي نطاق المشيئة الإلهية، وإذا اختار الثاني ففي نطاقها أيضاً⁽¹⁾.

2 - التوفيق بين مشيئة الله ومشيئة العبد للهدى والضلال:

أسند الله ﷻ الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْتَكَى عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 93].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِإِذْنِ قَوَّيْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآ لَمْ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَآ لَمْ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: 36 . 37].

والواقع أن هذه وأمثالها نصوص عامة ولا بد أن تحمل على النصوص المقيدة، فليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة، أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن وذلك لأنه توجد هناك إلى جانب هذه الآيات العامة آيات أخرى تقيد مشيئة الله في الهداية والإضلال بأحوال خاصة وأسباب معينة وهذه الآيات المقيدة تبين لنا من يشاء الله تعالى هدايته ومن يشاء إضلاله وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 365.

لقد ربط الله ﷻ كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضلال ومشيئته ﷻ لهما، والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذي عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56]. فأخبر عن عموم قدرة الله ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف يشاء، ثم أخبر أن هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم أي سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما يشاء فإنه لا يشاء إلا العدل⁽¹⁾.

فهذا هدى الله سبحانه لعباده أو إضلالهم إنما تقوم على أساس ترتيب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها، كما دل على ذلك كثير من الآيات ومنها:

- قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 27].

- وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ آلِهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

بين ﷻ في الآية الأولى إن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم، وبين في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه⁽²⁾.

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله من خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا

(1) السنن الإلهية (1/ 105).

(2) المصدر نفسه (1/ 106).

حَرْبًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ [الأنعام: 125].

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخَلْ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْمُتَرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 8 . 10].

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم الله بها على فعل محظور وترك مأمور، وتلك الأمور إنما خلقت لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولا بد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسينات عدلاً من الله، حيث وضع ذلك في محله القابل له، وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في السيئة: نفسك إن لم تشغلها شغلتك⁽¹⁾.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100] أي: وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها ولا مما أعطاه الله من الاختيار فيما هداه من النجدين وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال بل مقيدة بنظام السنن والأقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له⁽²⁾.

(1) الحسنة والسيئة لابن تيمية، ص: 94-95.

(2) تفسير المنار (11/ 484).

3 - التوفيق بين القدر الأزلي واختيار الهدى والضلال:

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً، يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً: إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبيانات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.. ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره، كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، وأن يجري قدر الله كذلك لإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤيا والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية للهدى، وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقول سواه، وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاء هكذا، وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا بقدر الله ينشيء الأحداث.. وفي إطار هذه الحقيقة الكبرى يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً، وهذا هو التصور الإسلامي إلى تنشئة مجموعة النصوص القرآنية مقارنة

متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج أو الجدل⁽¹⁾.

رابعاً: أسباب الضلال:

للضلال أسباب كثيرة وعوامل حسبما تجري به سنة الله في عباده من ترتيب النتائج على مقدماتها واتباع المسببات لأسبابها، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل فكرية، أو نفسية، أو أخلاقية، وقد ترجع إلى التأثير بالوراثة أو البيئة، أو النشأة أو طبيعة الحياة التي يحياها صاحبها أو غير ذلك من الأسباب والعوامل والتي من أهمها:

1. عدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكير في آيات الله:

- قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذَى يَنْفَعُ مَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَيْنَكُمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: 171].

فهم صم لا يسمعون الحق، وعمي لا ينظرون إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم الحق⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: 44].

فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من

(1) في ظلال القرآن (3 / 1400).

(2) شفاء العليل، ص: 199، 206 السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 114).

الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتتهدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً والأكثررون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة، والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق . مع الدليل إليه . أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف: 198] . فبين سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى .

- وقال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا مِنَ الذِّكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿١٩١﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿١٩٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿١٩١﴾ [المدثر: 49 - 51] . فهم قد نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها، ويعقرها وهم في جهلهم هذا كالحمر التي لا تعقل شيئاً⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٩٣﴾ [يوسف: 105] .

بين ﷻ إعراض الصالحين عن النظر في الآيات الكونية ولذلك

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (1/ 159).

(2) المصدر نفسه (1/ 164) بتصرف، السنن الإلهية (1).

فإن الكفار يشهدون على أنفسهم إذا عاينوا نتيجة ضلالهم بعدم العقل والسمع ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (المُلْك: 10)⁽¹⁾.

2. الذنوب والمعاصي:

إن من أسباب الضلال حسب سنته ﷺ ارتكاب الذنوب والمعاصي وذلك أن الذنوب سبب في صدأ القلب وتكون الران عليه الذي يمنع من دخول الإيمان إلى قلب صاحبه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢) إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءِيشًا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[المطففين: 12-14]. أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا⁽²⁾، ثم إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله ﷻ والطبع فلا يكون للإيمان إليه مسلك ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: 7].

وجاء قوله تعالى مهتداً للذين يقتربون الذنوب والمعاصي بأن يطبع على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان⁽³⁾.

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (1/ 164).

(2) تفسير ابن كثير (4/ 485)، فتح القدير (4/ 400).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 119).

- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: 100] .

ثم إن الذنوب والمعاصي سبب في مرض القلوب، لأن صحتها تكون بمعرفة الله وطاعته والإنابة إليه والتزام أمره واجتناب نعيمه وإيثاره على غيره ومحبهه والتوكل عليه وإفراذه بالعبودية دون سواه⁽¹⁾، فإذا تتابعت هذه الذنوب وتكاثرت اشتد مرض القلب، ثم لا تزال الذنوب بالقلب حتى تغلب عليه فيموت بالكلية، ومن مات قلبه فإنه لا ينتفع بالهدى ولا الإيمان ولا يسمع ولا يعقل ولا يبصر.

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من كان حياً أما من صار في عداد الأموات فإنه لا ينتفع به⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: 69-70] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: 36] .

3 اتباع الشيطان:

ومن أسباب الضلال الخطيرة والتي ضل بها كثير من الخلق، اتباع الشيطان الذي نذر نفسه وبذل عمره لإغواء بني آدم.

(1) إغاثة اللهفان لابن القيم (1/ 7)، السنن الإلهية (1/ 119).

(2) السنن الإلهية (1/ 119).

قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (١٥) ﴿قَالَ فَمَا آخِرَتِي لِأَلْعَدَّةِ ثُمَّ مِثْلِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: 14-17).

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَفَاتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٨) ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَلَّذِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (الحجر: 36-40).

وقد أمر الله ﷻ بالحذر منه، واستفراغ الجهد في معاداته وبين أنه عدو لدود وظاهر لبني الإنسان⁽¹⁾.

- قال ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١) ﴿[فاطر: 6].

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً مداخل الشيطان وخططه في إضلال بني آدم في غير ما آية ومجمل هذه الخطط والمداخل ما يلي:

أ. الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم:

قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ تَلْبِسُوا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٧٨) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 168-169).

(1) روح المعاني للالوسي (15/ 94).

والسوء: الإثم، وقيل معاصي الله، فإنما سماها الله سوءاً لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وأما الفحشاء فهي كل مستفحشة ذكره وقبح مسموعه، وقيل الزنا⁽¹⁾.

ب. تزيين الأعمال الباطلة والمعرمة:

- قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43]. من الشرك والمعاندة والمعاصي.

وبين الشيطان أنه يزين لبني آدم أعمالهم ليغويهم، قال تعالى حاكياً قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُ أَصِلُ فِيهَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَا فِيهَا فَاعٍ وَمُتَكِبٌ فَتُحْدِثَ لِي ضَلَالَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحجر: 39].

- وقال تعالى مبيناً نتيجة تزيين الشيطان للناس أعمالهم وهو الضلال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24].

- وقال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: 37]، أي: صد عن طريق الهداية فأصبح ضالاً لا يقبل الهدى⁽²⁾.

وبين ﷺ أنه قد أضل هؤلاء الذين قبلوا تزيين الشياطين لهم فخلت بهم سنته في الضلال، وحق عليهم القول، فالشيطان حسناً

(1) تفسير الطبري (2 / 772)، السنن الإلهية (1 / 122).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 122).

لهم أعمالهم في الماضي وفي المستقبل، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، فعاقبهم بما ارتضوا لأنفسهم⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (١٥) ﴿فُضِّلَتْ: 25﴾.

وتزيين الشيطان للناس أعمالهم على قسمين: فردي وجماعي، فالفردي كما في الآية السابقة من تزيين الشيطان لفرعون عمله، وأما التزيين الجماعي كما في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٢٨) ﴿الْعنكبوت: 38﴾⁽²⁾.

جـ الوعود والأمانى الكاذبة:

- قال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مَبِيتُهُمْ وَلَا مُرْتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْإِنْسَانِ وَلَا مَرْتُهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١٦) ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٧) ﴿[النساء: 119 - 120] أي ولا أضلنهم عن الحق﴾ (وَلَا مَبِيتُهُمْ) أي: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأمانى وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم ﴿وَلَا مُرْتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْإِنْسَانِ﴾ قال عدد من العلماء: يعني تشويقها وجعلها سمة وعلامة للبهيرة والسائبة والوصيلة⁽³⁾، وأما تغيير خلق الله: فهو دين الله،

(1) تفسير ابن كثير (4 / 97)، السنن الإلهية (1 / 124).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 125).

(3) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 535).

ومعنى تغيير الدين تحليل الحرام وتحريم الحلال⁽¹⁾.

ومن الوعود الباطلة التي يعدها الشيطان لأتباعه: أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله فسيحل بهم الفقر⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268].

وقد فسر ابن كثير: الفحشاء بالأمر بالمعاصي والمأثم والمحارم ومخالفة الخالق⁽³⁾.

ح . الاستهواء:

ومن الناس من يضلّه الشيطان بعد أن كان قد عرف الإيمان وذاقه، وقد صور الله حالة هذا الذي استهواه الشيطان بعد أن كان مؤمناً فيقول، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَدْعُونِى دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوَيْنَا قُلْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرَنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71].

فالذي استهوته الشياطين هو الذي استغوته وزينت له هواه ودعته إليه، يقال: هوى يهوى إلى الشيء أسرع فيه، بعد أن كان مؤمناً⁽⁴⁾، ولفظ الاستهواء لفظ مصور ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 122).

(2) تفسير ابن كثير (1 / 312)، السنن الإلهية (1 / 126).

(3) تفسير ابن كثير (1 / 312).

(4) تفسير القرطبي (3 / 2454).

اتجاهه فيكون في اتجاه واحد، وهو الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون: اثنتا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم، وهو بين هذا الدعاء وهذا الاستهواء في حيرة واضطراب وضلال وتيه⁽¹⁾.

د. الموالاة:

ومن الناس من يتخذ الشيطان ولياً ونصيراً ومعيناً من دون الله، يلتجئ إليه ويدعوه، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [الأعراف: 30].

وقد قضى الله ﷻ فيمن تولى الشيطان أن يضلّه عن الصراط المستقيم ويهديه إلى عذاب الجحيم⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿وَيَنْبَغُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ﴿٢٦﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٧﴾ [الحج: 3-4].

س. الاستحواذ:

وبين الله ﷻ فريقاً من الذين يضلّهم الشيطان وهؤلاء الذين يستولي عليهم استيلاء تاماً، ويغلب على عقولهم وقلوبهم بوسوسته، وتزيينه حتى يتبعوه في كل ما يأمرهم به، ويصبحون أداة طيعة للشيطان، فينسيهم ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم⁽³⁾.

(1) فتح القدير للشوكاني (2 / 130) في ظلال القرآن (2 / 1132).

(2) السنن الإلهية (1 / 128).

(3) المصدر نفسه (1 / 128).

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْفِقُونَ لَمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ مِمَّ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ أَسْتَعِذَّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمُ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: 18 . 19].

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰيَبْنَیَّ ءَادَمُ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يس: 60 . 62].

4 . الجهل واتباع الظن :

- قال تعالى: مبيناً ضلال قوم ثمود: ﴿قَالُوا إِنَّمَا آخِذْنَا بِنَاتَانِكَا عَنِ الْعَيْتِ فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: 22 . 23].

- وقال تعالى مبيناً ضلال من اتبع جهله، ونسب إليه سبحانه الولد، قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿١﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: 4 . 5].

- وقال تعالى مبيناً جهل كفار قريش بدعوتهم رسول الله ﷺ إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة المدعاة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

﴿ ١٦ ﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَ عِبَادَ اللَّهِ أَنِ اعْبُدُوا إِلَهُاتِ الْجَاهِلُونَ ﴿ [الزمر: 62-64]

بين ﷺ عقابه للذين لا يعلمون وسنته فيهم فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطِيعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [الزوم: 58-59].

وأما اتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا يبنني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته ﷺ، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب اتباعهم الظن . كسابقهم من الكافرين . وذلك بجعل الأصنام شركاء لله ، وعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيرهم ⁽¹⁾.

- قال ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿ [يونس: 66] .

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿ [يونس: 36].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَفِئِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ [الجناتية: 32] ⁽²⁾.

(1) روح المعاني (8 / 51)، في ظلال القرآن (3 / 1227).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 132).

5. الجدل في الله وآياته بغير علم:

ومن أعظم أسباب الضلال: الجدل في توحيد الله وصفاته، وشرعه، وقدره، وكتابه، واليوم الآخر بغير علم، يدفعهم لذلك الكبر، والجهل، والحسد والتعصب، ويزعمون للناس ولأنفسهم أنهم إنما يناقشون ويجادلون، لأنهم لم يقتنعوا بالحق، وأنهم غير مستيقنين فيه⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاسْتَوَذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ الْبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: 56].

- وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴿٣٥﴾ [غافر: 34-35].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ٨﴾ فَإِنِّي عِطْفِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ [الحج: 8، 9].

6 - الغفلة:

من أسباب الضلال غفلة الناس عن الأدلة الموصلة إلى الحق والهدى وعدم النظر فيها:

(1) في ظلال القرآن (5 / 3089). السنن الإلهية (1 / 132).

- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي أَخْيَالِكِ الْبَلِّ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَةً لِّعَوْمٍ يُشْفَوْنَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ أَتَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ نَارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 6 . 8].

- وقال ﷺ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1 . 3].

- وقال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنْ ءَايَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنِّ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُذِّبُوا سَبِيلَ الَّذِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

7. التعصب:

إن التعصب للباطل من أسباب الضلال، قال تعالى مبيناً أثر التعصب في ضلال اليهود، وعدم إيمانهم، واتباعهم لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُتِيَائَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91].

وقال تعالى مبيناً تعصب كل من طائفتي اليهود والنصارى لنفسها وزعم كل طائفة منهما أنها على الحق دون غيرها، فكفر اليهود بعيسى عليه السلام رغم أنه منهم، وقد كانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزمهم تعصباً وقالت النصارى: أن اليهود ليسوا على شيء حقيقي

من الدين لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ آيَاتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: 111 - 113].

8. التقليد:

إن من أسباب الضلال عند الكافرين من الأولين والآخرين التقليد للآباء دون نظر أو فكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَكُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ فِعَالٍ وَإِنَّا عَلَىٰ الْفَثِيرِ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23].

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: 9-10].

(1) تفسير المنار (1 / 429).

لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التي جاءهم بها الأنبياء، قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مُتَعَدُونَ﴾ [الزخرف: 22] . وهي مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافة لا تستند إلى قوة إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي ولا يعرف معالم الطريق⁽¹⁾.

إنها: طبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوي في معرض النقد والتفكير⁽²⁾؟

ومن الأقوام التي حدثنا القرآن الكريم عنها، وكان من أسباب ضلالها تقليد الآباء: قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أنهم لم يسمعوا بمثل دعوته في آبائهم الأولين وكان الحجة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم.

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 23 . 24].

(1) في ظلال القرآن (5/ 3182).

(2) المصدر نفسه (4/ 2091)، السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 141).

وقوم عاد يعجبون مما ليس منه عجب، وينكرون على نبيهم أن يأتيهم بعبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة المتفرقة التي كان يعبدونها آباؤهم الأولون فيسألون منكبين : ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 70] .

وبنفس العلة والحجة رفضت ثمود دعوة أخيههم ونبيهم صالح عليه السلام وجعلوا ما عليه آباءهم . سواء أكانوا سابقين أو حاضرين . حجة تمنعهم من الإيمان⁽¹⁾ .

- قال تعالى: ﴿وَإِنْ ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقِرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْرِقُوا تُرَاهُ فَنُوحُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي جَبَّارٌ ۖ قَلِيلًا يُصْلِحُ ۚ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبِينَ﴾ [هود: 61 . 62] .

وكذلك نجد قوم إبراهيم يصرون على عبادة التماثيل التي لا تضر ولا تنفع ولا يجدون جواباً لسؤال نبيهم : ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52] ، إلا أن قالوا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادَةً﴾ [الأنبياء: 53] ، هذا هو الجواب، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد، في مقابلة حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله يحرر الإنسان من القديسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل⁽²⁾ .

(1) السنن الإلهية (1/ 143).

(2) في ظلال القرآن (4/ 2385).

وقوم شعيب يقولون لنبيهم: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]. وقابل فرعون وملؤه دعوة موسى عليه السلام بالتقليد الأعمى المزري الذي يسيطر على العقول فيجعلها لا تفكر، وعلى البصائر فيقفلها فلا يجعلها تنظر أو تعتبر: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78].

وأما كفار قريش فقد قال تعالى حاكياً أقوالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104].

- وقال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمِنْ بَرِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [١١] بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِهِمْ مُهِتَدُونَ﴾ [الزخرف: 21، 22].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَفِلَئُا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ [سبأ: 43].

والقرآن الكريم وهو يدعو إلى هذا التحرر والتفكير يسوق الأدلة والآيات والحجج والبراهين التي تبرهن وتثبت أنه دين الله الذي فيه نجاة البشر جميعاً من الظلمات إلى النور⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

(1) تفسير المنار (2/ 27)، السنن الإلهية (1/ 147).

- وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةَكُمْ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) [البقرة: 151].

فمن تدبرها وعقلها وصل إلى الحق واهتدى ومن هنا فقد كان سبيل المؤمنين المهتدين هو الاتباع عن بصيرة وتدبر وتعقل⁽¹⁾، كما قال موسى عليه السلام عندما سأله فرعون: قال تعالى: ﴿قَالَ فَسَنَ رَأَيْكَ يَمْسِكُنِي قَالَ رَبَّنَا الَّذِي اَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥١) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحِضِلُ رَبِّي وَلَا يَلْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ (٥٤) [طه: 49 . 54].

وكما قال يوسف عليه السلام متبعاً ملة آبائه ولكن عن بصيرة ويقين⁽²⁾، قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨) يَصْدِجِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَوْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 37-39].

وهكذا أمر الرسول ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 147).

(2) تفسير المراغي (12/ 174).

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ وَيَذَلِكَ أُتِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْبَشَرِ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ
أَنْفِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٦٤﴾ [الأنعام: 161 - 164].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [النحل: 123].

فاتباع الآباء واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة
ودليل هو سبيل الهداية، كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين
هداهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب
ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل
واليسع ويونس، ولوطاً ومن آباؤهم وذرياتهم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدْتَهُمْ أَفَتَدْرِي قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 90].

وأما اتباع الأبناء للآباء والأجداد وتقليدهم والتمسك بآرائهم،
ومحاكاتهم في كل أقوالهم وأعمالهم من غير بينة ولا حجة ظناً منهم
أنهم على الحق، دون النظر في أدلة من يدعوهم إلى الهدى، وقيم
الدلائل والبيّنات على صحة ما يدعو إليه وهو الضلال، وهو سبيل
الكافرين، وعلّة الإعراض عن الإيمان بالله والسير على طريق الهدى
الذي ارتضاه للناس⁽¹⁾.

9. الشك والريبة:

ومن الأسباب التي يستحق بها بعض العباد الضلال: مرض
القلوب وهو خروج القلب عن صحته، فإن صحته أن يكون عارفاً

(1) السنن الإلهية (1 / 149).

بالله، محباً له مؤثراً له على غيره، ومرض القلب هو شكه فمرض المنافقين هو مرض شك⁽¹⁾.

وقد جعل الله ﷻ ذلك سبباً في زيادة المرض في قلوبهم، وعدم إيمانهم، فالمرض ينشيء المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم ينفرج الزاوية في كل خطوة، سنة لا تتخلف⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 124 - 125].

- وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34].

وبين ﷻ في آية أخرى أنه يعاقب المنافقين الذين لا يوفون بعهودهم مع الله ﷻ بنفاق مستمر في قلوبهم إلى يوم لقائهم، وهذا حسب سنته ﷻ في تأثير الأعمال على النفوس، وأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه القلب⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتٰنَا مِنْ

(1) شفاء العليل، ص: 211.

(2) في ظلال القرآن (1 / 43) السنن الإلهية (1 / 43).

(3) روح المعاني (10 / 144)، تفسير المنار (10 / 648).

فَضْلِهِ. لَنَصَدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
بَجَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ
يُلْقَوْنَ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: 75، 77].

ثم قال ﷺ مبيناً أنه لا يهدي هؤلاء المنافقين، لأن سنته ﷺ جرت في الممعنين في فسوقهم، وتمردهم المصيرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان والهداية⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: 80].

10 . الجحود:

ومن الأسباب التي رتب الله ﷻ عليها الضلال حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال: الجحود والذي يعني الإنكار مع العلم⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: 26].

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بمنزلة التعليل لسلبه إياهم ما

(1) تفسير المنار (10 / 657)، السنن الإلهية (1 / 150).

(2) الصحاح (2 / 451) للجوهري.

أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل، حتى وقعوا في الضلال⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: 47].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 48-49].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَاطِلٌ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُم مِّنْهُم فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْغُرُوبَ قَالُوا أَلَيْسَ بِاللَّهِ فَتًى فَمِنْهُمْ مَّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: 32].

والختار: الذي هو في غاية الغدر، والكفور: الذي لا يشكر نعمة الله، بل يجحدها⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ءَايَاتُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59].

- وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ بَدَكَ فِي جَنَّتِكَ مَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوِّ فِي نَجْعٍ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَجَحْدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا

(1) السنن الإلهية (1 / 151).

(2) تفسير القرطبي (6 / 5162. 5163).

وَعُلُوًّا فَانْتَظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: 12 - 14].

- قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا بِكَدِّ وَبُؤْسِكِ وَلَكِنَّ الْأَطْلَافَ يَنَافِتِ اللَّهُ بِجَحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وإذا كان مصير الجاحدين بآيات الله في الدنيا الضلال والغواية فإن مصيرهم في الآخرة الحسرة والندم، إذ يكونون من أصحاب النار⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لِمَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَسْفَعُهُمْ كَمَا نَسْفَعُ لَهْوًا يَوْمَهُمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِإِذْنِنَا يُجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 50-51].

11 . التآبي والعناد والتعنت :

فالتآبي عن الإيمان، وعصيان أوامر الله يؤديان لصاحبهما إلى الضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنْ ﴿٥١﴾﴾ [طه: 56].

وأما العناد فحالة نفسية تدفع بصاحبها إلى التآبي عن الانصياع للحق على سبيل المكابرة دون أن تكون لديه مبررات بذلك، حتى ولو كانت مبررات زائفة أو باطلة⁽²⁾.

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 157).

(2) المصدر نفسه (1 / 157).

- قال ﷺ مبيناً أن العناد مانع عن الهدى وسبب في الضلال:
﴿كَلَّا إِنَّكَ كَانَتْ لَإِيَّتِنَا عَيْنًا﴾ (المذثر: 16).

وقال مبيناً على الضلال ومصوراً شدة عناد الضالين .

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَعْرَجُونَ﴾ (الحجر: 14، 15).

- وقال ﷺ عنه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ بِأَيِّدِيهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ (الأنعام: 7)، وقد بلغ
العناد من كفر قريش غايته، حين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنَّ كَاتَ هَذَا هُوَ
الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمِطْهُ عَلَيْنَا جِجَارَهُ مِن السَّكَةِ أَوْ أَثِقْنَا بِعَذَابِ
أَيْسَرٍ﴾ (الأنفال: 32).

وأما مثال التعنت ما كان من كفار قريش عندما طلبوا من
الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية من ست آيات اقترحوها، ولو عقلوا
لأدركوا أن في القرآن وفي الكون أضعافاً مضاعفة عن هذا العدد أو
هذه الآيات التي طلبوها⁽¹⁾، قال تعالى حاكياً قول كفار قريش:
﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (١٠) *أَوْ تَكُونَ*
*لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَسَبَ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (١١) *أَوْ تُسْقِطَ*
السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ
*لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفْيِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا**

(1) تفسير الطبري (15 / 159 - 166).

كَذَّبَا نَقَرُوهُمُ قُلُوبَ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٦٦﴾ [الإسراء: 90 . 93].

12 . الكبر :

من أسباب الضلال طبقاً لسننه ﷺ في الهداية والإضلال، وقد قال ﷺ: «الكبر بطل الحق وغمط الناس»⁽¹⁾.

وقال النووي الكبر هو الارتفاع عن الناس واحتقارهم ودفع الحق⁽²⁾.

وقد وردت الآيات في ذم الكبر والمتكبرين وهو سبب الضلال والإضلال⁽³⁾.

قال ﷺ عن الكفار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: 35] ، أي : يتعظمون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون .

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22].

وقال عن ضلال اليهود بسبب كبرهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

(1) مسلم، ك الإيمان، باب تحريم الكبر (1 / 93).

(2) صحيح مسلم شرح النووي (2 / 91).

(3) السنن الإلهية (1 / 160).

وقال عن كبر كفار قريش وامتناعهم لذلك عن الإيمان، كسابقيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّأَ أُولَئِكَ تَوَلَّأَ تَوَلَّأَ﴾ [الفرقان: 21].

وأما قوم نوح فقد وصفهم نبيهم عليه السلام كما حكى القرآن ذلك: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَؤُا ۖ وَيَاأَيْمَهُمْ وَاَصْرُوا ۖ وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ اسْتَكْبَارًا ۖ﴾ [نوح: 7]، فقلوه: ﴿جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ فِي أَذَانِهِمْ﴾ [نوح: 7] لثلا يسمعون صوتي ﴿وَأَسْتَفْسَؤُا ۖ وَيَاأَيْمَهُمْ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لثلا يروني، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لثلا يسمعون كلامي فيكون استغشاء الثياب على هذا النحو زيادة في سد الآذان⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ۖ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۚ كَأَن فِي أُذُنِهِ قُفْرًا ۚ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾ [القمآن: 7].

- وقال تعالى: ﴿يَمَعْ ءَايَتِ اللَّهِ تَنَادَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُعِزُّ مُسْتَكْبِرًا ۚ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الباقية: 8].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ ۖ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ﴾ [المنافقون: 5].

وإذا كان المتكبر يدفعه كبره ألا يسمع آيات الله، وإذا سمعها فلا ينظر فيها ولا يتدبرها، ولا ينقاد إلى ما تدعو إليه من الهدى،

(1) فتح القدير (5/ 297)، السنن الإلهية (1/ 164).

فإن ذلك يستتبع نتائجه في عقله وغيبه، وذلك بصرف الله إياه عن الانتفاع بآياته سواء الكونية أو السمعية⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِقَى الَّذِينَ يَنْكَبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الاعراف: 146].

ويعاقبه كذلك بالطبع على قلبه حتى يصير ذلك سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارقه ويغطي على قلبه ويستوثق منه فلا يدخله شيء من الهدى⁽²⁾، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

13 . حب الدنيا والاعترا بها واتخاذها لهواً:

إن من أسباب الضلال شعور الإنسان أن هذه الحياة الدنيا مصادفة عمياء وأن الوجود بها ليس له هدف، قال ﷺ رداً على من كان ذلك معتقدهم: ﴿أَفَحَبِطَتْ أُنْمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِنْئَا لَا تُرْجِعُونَ﴾ (١٦) [المؤمنون: 115].

- وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَالَمَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21].

وقال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ دَوْبِلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(1) روح المعاني (9 / 60).

(2) شفاء العليل، ص: 198 ، 199 ، السنن الإلهية (1 / 165).

عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ [إبراهيم: 2 - 3].

- وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٢﴾ [النجم: 29].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ نَبَا لَكَ إِنَّا أَنشَأْنَا لَكَ زَوْجًا مَّوَدًّا
زَيْنَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى
أَمْوَالِهِمْ وَأَشْذَذْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
[يونس: 88].

- وقال ﷺ مسجلاً على الكافرين بسبب غرورهم بالدنيا: ﴿ذَلِكُمْ
بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الجنابة: 35].

ثم إن حبههم لهذه الدنيا يدفعهم إلى الانغماس في شهواتها
ومنها إلى حد الترف الذي من طبيعته، أنه يفسد الفطرة، ويغلظ
المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرفهة التي
تتلقى وتستجيب وتستجيب⁽¹⁾.

فقال تعالى مبيناً أن المترفين اتبعوا ترفهم وكفروا بما أرسل به
المرسلون: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا
أُتُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116].

- وقال تعالى ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(1) في ظلال القرآن (4 / 6467).

مَتَرُونَهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ [سَبَأ: 34].

14 . اتباع الهوى :

والمقصود بالهوى ميل النفس للشهوة⁽¹⁾.

لقد جرت سنة الله تعالى في الهداية والإضلال أن يكون اتباع الهوى سبباً من أسباب الضلال.

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50].

- وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119].

- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَفْلُتُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

- وقال ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حيث تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب، حين تعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدراً لتصوراتها، وأحكامها ومشاعرها

(1) ذم الهوى لابن الجوزي، ص: 12.

وتحركاتها، وتقييمه إلهياً قاهراً لها مسؤولاً عليها، تتلقى إشارته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول، يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَلَفَ إِلَهُهُ هُوَ؟﴾ [الجنائنة: 23] ؟ أفرأيت إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجب، وهو يستحق من الله أن يضلّه، فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقي في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق لا يقوم لهواه ولا يصدّه عن اتخاذ إلهاً يطاع، وهذا يقتضي إضلال الله له، والإملاء له عماه ﴿وَرَحِمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا﴾ فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى، طاعة العباد والتسليم ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ والهدى هدى، وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة، فذلك من شأن الله الذي لا يشاركه فيه أحد، حتى رسله المختارون، ﴿أَفَلَا نَذْكُرُ﴾ ﴿١٥٥﴾ [الصفّات: 155] ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربة الهوى، وعاد إلى النهج الثابت الواضح، الذي لا يضل سالكوه⁽¹⁾.

وهذه السنة سنة الله في إضلال من اتبع هواه تحققت في أقوام سابقة وستمضي دائماً في كل قوم يتبعون أهوائهم ويحيدون عن الحق⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الفصص: 50] .

(1) في ظلال القرآن (5/ 3230-3231).

(2) السنن الإلهية (1/ 171).

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40 . 41].

وقد حذر الله ﷻ نبيه داود عليه السلام من أن يؤثر هواه في قضائه بين الناس على الحق والعدل فيه فيكون نتيجة ذلك ميله عن طريق الله الذي جعله الله ﷻ لأهل الإيمان به، فيكون من الهالكين بضلاله عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

وقال تعالى محذراً خاتم الأنبياء والمرسلين من طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه المتقلب وآثره على الحق.

- قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

ومن المواطن التي حذر الله ﷻ عباده من اتباع الهوى فيها ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77].

- وقال تعالى مبيناً عدم اتباع الرسول ﷺ للهوى تجنباً لما

يستتبعه الهوى من الضلال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56].

- وقال تعالى: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) [الأعراف: 175-178].

وهكذا يتبين لنا بجلاء أهمية الهوى، وإن الوقوع في ذلك وقوع في الضلال وبالتالي الوقوع في الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71].

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى والحب والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجِد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون وبما فيه الإنسان يحتاج إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد⁽¹⁾.

(1) في ظلال القرآن (4/ 2475).

15 . الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين :

- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا عَائِيَّتِي وَرُسُلِي هُزُوا﴾ [الكهف: 106].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١١٩] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ [١٢٠] [المؤمنون: 109 - 110].

وهكذا فإن الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنون، يشغل صاحبه عن التدبر والتفكير في دلائل الإيمان التي في الوجود، وفي دلائل صدق رسول الله ﷺ، ويشغله أيضاً عن الاعتبار بما أثر الإيمان في نفوس أصحابه وحالهم وسلوكهم وإن ذلك الاستهزاء أيضاً يبعد بينه وبين صاحبه عن كل الدلائل والبيّنات ولا شك أن ذلك كله يسلمه إلى الضلال والغي⁽¹⁾.

16 . الكفر:

بين ﷺ في غير ما آية وإن سنته في الكافرين هي أن يعاقبهم بالإضلال وعدم الهداية، وقد جاء التعبير عن كفرهم هذا بالظلم تارة، وبالفسق تارة أخرى، وبالتكذيب ثالثة، وبالإجرام رابعة، ليضيف كل لفظ من هذه الألفاظ معنى آخر، بالإضافة إلى معنى

(1) السنن الإلهية (1 / 178)، في ظلال القرآن (4 / 2482).

الكفر، وقد جاء بيان جزائهم في أكثر من سياق سواء في الكفر أو الفسق أو الظلم، ليكشف أيضاً علل ذلك الكفر، وصفات الذين حكم عليهم بالكفر أو الفسق أو الظلم وعدم الهداية لهم، ومن خلال تتبع الآيات التي جعلت الظلم والفسق والكفر والإجرام سبباً في الضلال وعدم الهداية، وتبين أن المقصود بمعظمها الشرك وعدم الإيمان بالله وما يترتب عليه، ووجد نبوة محمد ﷺ والتكذيب بها، وإن كان لكل لفظ من هذه الألفاظ له معناه الذي يختص في الأصل والوضع⁽¹⁾.

أ - الفسق: والفسق يقع على كثير الذنب وقليله، ولكنه معروف بالكثير أكثر، ومن وجوه ورود الفسق في القرآن في الكفر وترك التوحيد، فالكافر فاسق لإخلاله بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة السليمة⁽²⁾، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الثور: 55].

ومن الآيات التي بينت سنة الله في إضلال هذا الصنف من الناس والذي يجمع بينهم الكفر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونُ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (١١) [البقرة: 26].

- وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(1) السنن الإلهية (1 / 180).

(2) المصدر نفسه (1 / 180).

وَعَشِيرَتُكَ وَأَمْوَالٌ أَقْرَبْتُمُوهَا وَبَحْرَةٌ فَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿[التوبة: 24].

المعنى: قد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفتهم، كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من اتباعه فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض في سبيله⁽¹⁾.

وقال ﷺ في حق المنافقين وهم كافرون عن الحقيقة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿[التوبة: 80] .

أي جرت سنة الله في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصرين على نفاقهم الذي أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للهداية، والله ﷻ لذلك لا يهديهم، عقوبة منه لأنهم لا يستحقونها⁽²⁾.

وأما ترتيب عدم الهداية بسبب الظلم: فقد ورد في آيات كثيرة، منها:

(1) تفسير المنار (10 / 236).

(2) تفسير المنار (10 / 567)، السنن الإلهية (1 / 182).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10].

فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله ضل⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ كَمَثَلِ الْجَحَامِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايِعَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5].

- وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 19].

- وقال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِزْرَهُمْ فِي رَبِّهِمْ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِزْرَهُمْ رَبِّيَ الَّذِي يُعْنِي وَيُيَسِّتُ قَالَ أَنَا أُخِي وَأُمِيتُ قَالَ إِزْرَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

فالله ﷻ من سننه أن لا يهدي الذي ظلم نفسه بالامتناع عن قبول الهداية، ولم ينظر في الدلائل التي توصل إلى معرفة الحق، ويستسلم للطاغوت، ويترك ما أعطاه الله من الفهم، اتباعاً لهواه وشهوته، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالاً بعيداً⁽²⁾.

(1) فتح القدير (5 / 16)، السنن الإلهية (1 / 182).

(2) تفسير البيضاوي (1 / 73)، تفسير المراغي (3 / 27).

ومن الآيات التي جاءت تبين أن الكفر سبب في تحقق الله في الإضلال:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا السَّبَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا عَمِلُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37].

- وقال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

- وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَذِبٌ﴾ [الزمر: 3].

- وقال ﷺ مبيناً أن التكذيب بآيات الله سبب في الضلال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: 95-96].

وقال ﷺ مبيناً أن الإجماع سبب في الضلال، وسبب في حلول سنة الله فيمن هذه صفته ⁽¹⁾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [11] كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿12﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ

(1) السنن الإلهية (1 / 187).

الْأَوَّلِينَ ﴿ [الحجر: 11-13].

17 . الغلو في الأنبياء والصالحين :

إن الإفراط والغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين بالقول والاعتقاد والفعل وتجاوز الحد والحق في منزلتهم التي أنزلهم الله إياها من ادعاء الألوهية لهم أو صرف شيء من العبادة . لا تنبغي إلا لله . لهم مثل التشريع والذبح والتضرع والدعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات سبب في الضلال⁽¹⁾.

فأما عن ضلال اليهود والنصارى بسبب غلوهم، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَ يُؤْفَكُونَ ﴿٣١﴾ أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهَبَتْهُمْ أَزْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [التوبة: 30-31].

- وقال ﷺ عن غلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَدُوحٌ مِّنْهُ فَتَأَمَّلُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَكِنَّ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ [النساء: 171].

(1) السنن الإلهية (1/ 195).

18 . صفة السوء والبيئة الفاسدة :

بين ﷺ أن صاحب السوء قد يكون سبباً في ضلال صاحبه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَنْخَضْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَيِّئًا ۖ يَنفُتِلَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ۖ﴾ (٧٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾ [الفرقان: 27 . 29].

ويصور القرآن الكريم جانباً من وسوسة صاحب السوء لصاحبه بقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمَصْدِقِينَ ۖ﴾ (٥٢) أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظْمًا ۖ أَهَذَا لَمَدِيثُونَ ۖ﴾ (٥٢) على سبيل الاستهجان والاستبعاد للبعث والحساب، ثم يبين أنه لولا فضل الله على ذلك صاحب وعدم استجابته له لكان هو وإياه في سواء الجحيم^(١).

- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ﴾ (٥٢) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۖ﴾ (٥١) يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمَصْدِقِينَ ۖ﴾ (٥٢) أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَاكِبًا وَعِظْمًا ۖ أَهَذَا لَمَدِيثُونَ ۖ﴾ (٥٢) قَالَ هَلْ أَنشَدَ مُطْلِعُونَ ۖ﴾ (٥١) فَأَطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٥٠) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتَرَوِينَ ۖ﴾ (٥١) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ۖ﴾ (٥٧) [الصفات: 50 . 57]، فمخالطة أهل السوء ومصاحبهم ضلال، أو سبيل إليه، ومقاربة منه^(٢).

19 . التشبه بالضالين :

حذر القرآن الكريم بالتشبه باليهود والنصارى وسائر الكفرة لأن

(1) في ظلال القرآن (5 / 2987 . 2988).

(2) السنن الإلهية (1 / 200).

هذا التشبه يؤدي إلى الضلال، ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحراب: 69].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47].

وكل ما ورد في القرآن من قصص اليهود أو النصارى، أو سائر الكفرة من الملل الأخرى في بيان معاصيهم وأخلاقهم ومعتقداتهم الباطلة، فيه عبرة لنا حتى لا نتشبه بهم فنضل كما ضلوا⁽¹⁾.

20 . الابتداع في الدين:

البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقتصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية⁽²⁾.

قال ﷺ: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾، فقوله: كل بدعة ضلالة: هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص: 17.

(2) الاعتصام للشاطبي (1 / 37).

(3) مسلم، ك الجمعة (2 / 591).

أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»⁽¹⁾ فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة⁽²⁾. وعن العرباض بن سارية قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾.

ودوافع البدعة كما ذكر الشاطبي رحمه الله هي: الجهل، حسن الظن بالعقل، واتباع الهوى، وكل ذلك من خطط الضلال وأسبابه والعياذ بالله، فالإحداث في الشريعة، إنما يقع إما من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحق بحسب الاستقراء في الكتاب والسنة. . إلا أن الجهات الثلاثة قد تنفرد وقد تجتمع، فإذا اجتمعت فتارة تتعلق بالأدوات التي تفهم بها المقاصد وهي اللغة العربية، فإن الله أنزل القرآن بلفظ عربي ولا يستخرج أحكامه ويعرف مقاصده إلا من كان

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (5/ 301).

(2) جامع العلوم والحكم، ص: 233.

(3) سنن أبي داود (5/ 15. 13).

على علم باللغة وأصولها، وتارة تتعلق بالمقاصد، وذلك بالجهل أن الله أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها وتبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين بشهادة الله بذلك حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء فقد كذب بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وأما جهة تحسين الظن فتارة يشرك في التشريع مع الشرك، وتارة يقدم عليه، وهذان النوعان يرجعان إلى نوع واحد، وأما جهة اتباع الهوى فمن شأنه أن يغلب الفهم حتى يغلب صاحبه الأدلة أو يستند إلى غير دليل⁽¹⁾. من هنا يتبين أن الابتداع في الدين وعدم اتباع هدى الله ﷻ سبب من أسباب الضلال⁽²⁾.

(1) الاعتصام (2/ 293) بتصرف.

(2) السنن الإلهية (1/ 207).

المبحث السادس

سنة الله في الأخذ بالأسباب

إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الغربة، فالأسباب مقدرة كالمسببات⁽¹⁾، وقد قال رسول الله ﷺ لمن سألَه عن الرقي، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»⁽²⁾، وحياة الرسول ﷺ وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل⁽³⁾.

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله ﷺ، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرضي بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهد وكان يستعيد بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر

(1) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1/ 428).

(2) سنن ابن ماجه (2/ 1137)، رقم 3437 حسن صحيح.

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 391.

لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سألته: أيعقل نافته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»⁽¹⁾.

وقال: «وفر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽²⁾، وما غزواته المظفرة ﷺ إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيلة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق، واختبأ في الغار⁽³⁾، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب ولهذا أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، ولهذا أنكر عمر عن أبي عبيدة ؓ ربطه القدر بعدم الأخذ بالأسباب، كما ورد في قصة طاعون عمواس الشهير، فحين همّ عمر بالرجوع إلى المدينة في حدود الشام، قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فدهش عمر لهذا الاعتراض وقال لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردف قائلاً: أرأيت لو كان إبل هبطت

(1) رواه ابن حبان بإسناد صحيح عن عمرو بن أمية الضميري.

(2) البخاري، ك الطب باب 19 (5/ 5380).

(3) عقيدة التوحيد سعاد مبير، ص: 212.

وإدباً له عدوتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس إن رعيت الخصبه رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبية رعيتها بقدر الله⁽¹⁾.

فعمر وأبو عبيدة يعلمان أنّ القدر علم الله السابق بما يحدث غير أن عمر كان يرى أنّ قدر الله لا دخل له في موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبب عنه الموت والرجوع أخذ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر عمر على أبي عبيدة أن يعترض عليه قائلاً له: لو غيرك يا أبا عبيدة، ولم يكتف بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله، مما يدل على أن القدر لا يصح أن يربط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصح أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة القدر⁽²⁾.

ولهذا يذهب ابن القيم إلى: أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشرعية مبناهما على إثباتها أي «الأسباب» لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك «الإيمان»، وبالأسباب عرف الله وبها عبد الله، وبها أطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نصر حربه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد

(1) البخاري، ك الطب رقم 5729.

(2) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 391.

وشقي، ومهتد وغوي، فالوقوف معها، والالتفاف إليها، والنظر إليها، هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً⁽¹⁾.

إن قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط⁽²⁾.

أولاً: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم؛

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد، ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد⁽³⁾.

1 - قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ [الأنفال: 60].

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ

(1) مدارج السالكين لابن القيم (3/ 407. 408).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 51.

(3) السنن الإلهية في الأمم والأفراد د. مجدي عاشور، ص: 61.

بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب⁽¹⁾.

وفي قوله: ﴿مَا اسْتَغْفَرُوا﴾ قال ابن كثير: أي مهما أمكنكم وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقاتها⁽²⁾، والمراد بالقوة هنا: ما يكون سبباً لحصول القوة ولهذا:

- قال أصحاب المعاني: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما تتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة وورد أن النبي ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً⁽³⁾. وهذا لا ينفي كون غير الرمي معتبراً كما قوله: «الحج عرفة»⁽⁴⁾. وقوله: «الدين النصيحة»⁽⁵⁾. لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا⁽⁶⁾. كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة «قوة» هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات.. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة⁽⁷⁾، وتدخل القوة

(1) في ظلال القرآن (2/ 919).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 221.

(3) مسلم مع شرح النووي (13/ 64).

(4) مسلم، ك الإيمان (1/ 74).

(5) المصدر نفسه.

(6) تفسير المنار (5/ 53).

(7) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 89 محمد السيد يوسف.

الاقتصادية، والسياسية، والأمنية والإعلامية، . الخ ومعنى "رَبَاطِ الْخَيْلِ": هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى⁽¹⁾.

ومعنى ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين، وذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخِرِينَ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك يفيد أمور كثيرة:

- أنهم لا يتجرأون على دخول دار الإسلام.

- أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم باحترام المسلمين والاستجابة لطلباتهم.

- أنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم.

- أنهم لا يعينون سائر الكفار.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار ويقابلوا الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه ويكل ما امتدت إليه يدهم، ويكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد

(1) تفسير النسفي نقلاً عن فقه النصر والتمكين، ص: 221.

واستعداد حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون⁽¹⁾.

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وترقى في مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف⁽²⁾.

إن إعداد القوة يستدعي إنفاقاً، وقد تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60] ، وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للإهلاك والمذلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، أي : إذ لم تبدلوا في سبيل الله وتأيد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك⁽³⁾، وقد بين أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة الروم «القسطنطينية» فأخرجوا إلينا صفّاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف للروم حتى دخل فيه فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل:

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي، ص: 225.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، شبيب أرسلان، ص: 164.

(3) الكشف للزمخشري (1/ 343).

وإنما أنزلت فينا معاصر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزَّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو⁽¹⁾.

وعموم الآية يقتضي الإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوي به المسلمون على عدوهم والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده⁽²⁾.

إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين، سنة الأخذ بالأسباب ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

إن الله ﷻ أمرنا بالإعداد الشامل في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع إذهان المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي

(1) سنن الترمذي (5/ 212) حسن صحيح غريب.

(2) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 164.

والفقهية على مستوى الأفراد والجماعات وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري⁽¹⁾.

2. قال تعالى: ﴿وَنَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٦ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٧ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۝٨٨ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَمِيمٍ مَخْمُومٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٩ قَالَ إِنَّمَا مِنْ ظُلْمٍ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكَرًا ۝٩٠ وَإِنَّمَا مِنْ آَمَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْخَيْرِ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٩١ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ۝٩٣ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩٤ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۝٩٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّئِ وَجَدَ مِنْ دُونِهَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٦ قَالُوا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٧ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَبِيرٌ فَأَعِثُّونِي بِقَوْمٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٨ فَأَتَوْنِي زُرَّارًا لَعَلِّي أَخْرُجَ عَنْ قَوْمٍ هَٰؤُلَاءِ سَاوِي ۝٩٩ بَيْنَ الصَّالِحِينَ قَالَ أَوْفُرُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلْتُمْ بَارًا قَالَ فَأَتَوْنِي أَفْرُغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝١٠٠ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَقْبًا ۝١٠١ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنِّي ۝١٠٢ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝١٠٣﴾ [الكهف: 83-98].

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى إن القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 214.

العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا﴾ وبعدها يكرر: ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَّأًا﴾ (٨٩)، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح في قوله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمْعًا دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم^(١).

وذو القرنين علم قرآني بارز، خلد الله ذكره في كتابه الخالد، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أفاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب، ولا جاء ولا قوة ولا سلطان، بل إنه بقي ذاكرًا لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر ليلقى جزاءه العادل عند ربه ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح والقيادة، ومثال الحاكم الصالح على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد^(٢).

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

- الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخر لتنفيذ شرع الله في الأرض وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع

(١) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 167.

(٢) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان، ص: 247. 249.

الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين .

- الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له فتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا .

- الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها حيث آتاه الله من كل شيء سبباً فاتبع سبباً .

الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله ﷻ :

أ . الدستور العادل :

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك ساق الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عملهم بهذا المنهج الرباني، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ۖ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا ۝ ﴾ [الكهف: 87، 88] .

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته، لأن الناس الذين قهرهم

وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح، فهل يستوون في المعاملة؟ ذو القرنين: أما الظالم الكافر وسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له، فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي.

إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذب مرتين، مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة ويخاطبه ببسر وسهولة وإشراق وبر ومودة⁽¹⁾.

لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح ودائماً يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب . المنهج التربوي للشعوب :

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرسوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيم الحياة في الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول أو حاكم أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى⁽²⁾.

(1) مع قصص السابقين في القرآن للخالدي (2/ 330 .331).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 142.

وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجدون ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون ومقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ، تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة فساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد⁽¹⁾.

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعات هدية للمحسن ليزداد في إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان⁽²⁾.

ج - الاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير :

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾ [الكهف: 84] إنه شخص مكن له رب السماوات والأرض الخالق المدبر المتصرف في شؤون الكون، رب العزة والجبروت

(1) في ظلال القرآن (4/ 922).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض.

- مكن له في العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً.

- مكن له في سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً.

- مكن له في أسباب القوة من الأسلحة والجيش وأسباب القوة والمنعة والظفر.

- مكن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنما الزراعة.

ومهما قيل ومهما تصور من أسباب التمكين الحسنة التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(١)، وبقي للتصور مجال وللخيال سعة لاستشفاف صورة هذا التمكين وأشكاله، وذلك من خلال المؤكدات العدة التي وردت في الآية الكريمة^(١).

ونلاحظ من خلال الآيات أن ذا القرنين وظف علوماً عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

- علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها، وسهولها،

(١) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم، ص: 304.

لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصص في هذا المجال⁽¹⁾.

- كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانيات على خير ما أتيج له : ﴿مَّا تَوْفَى زُبْرُ الْحَدِيدِ حَقًّا إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلُمُ نَارًا قَالَ مَّا تَوْفَى أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96] .

أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للعمال: انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين⁽²⁾. فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: أتونى نحاساً مذاباً أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته⁽³⁾.

- كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها فقد قدر حجم الخطر، وقدر ما يحتاج إليه من علاج، فلم يجعل السور من

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

(2) روح المعاني للألوسي (16/ 40).

(3) فتح القدير (3/ 313).

الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين : ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبَا﴾ (الكهف: 97)، أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخائته⁽¹⁾.

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تكتة لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله⁽²⁾.

د - فقهه في إحياء الشعوب :

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحثك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته :

الرحلة الأولى :

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح.

قال تعالى : ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكَرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿[الكهف: 87-88].

(1) فتح القدير للشوكاني (3/ 313).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 144.

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يده في حياته الأولى.

. الرحلة الثانية :

وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة، إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90] ، هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور ولا يوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن⁽¹⁾.

ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل⁽²⁾.

(1) القصص القرآني من سورة الكهف، ص: 87.

(2) مباحث في التفسير الموضوعي مصطفى مسلم، ص: 306.

. الرحلة الثالثة :

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان . وكان وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم . ففي التفاهم والمخاطبة لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه ما يحدث به غيره من غير بني قومه : ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93] .

ونلاحظ من خلال السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

- هم قوم متخلفون ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ، هذا إما معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلَقون على لغتهم فقط . وإما معناه: أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون، ولا يتفاعلون معه، ولا يفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم .

- هم قوم ضعفاء: ولذلك عجزوا عن صد هجمات يأجوج ومأجوج والوقوف في وجههم، ومنع أفسادهم .

هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين

ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

- هم قوم اتكاليون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحوالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليها حقها، أما هم فمستعدون لدفع المال له⁽¹⁾. لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة ويشارك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح الحماسة والحيوية والتعاون المشترك⁽²⁾، قال تعالى: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنِي بَيْنَ الضَّالِّينَ قَالَ انكُحُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ ﴾ [الكهف: 95-96].

لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك من تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم⁽³⁾، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سداً، أما هو فقد وعد بأن

(1) مع قصص السابقين للخالدي (2/ 338).

(2) الحاكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 627).

(3) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (3/ 243).

يجعل بينهم ردماً، والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجعون⁽¹⁾.

لقد عفا ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم : ﴿فَاعِثُونِي بِقُوَّةٍ أَلَجَلٌ بَيْنَكُمُ وَيَتَنَبَّهْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95] .

إن في هذه العبارة القرآنية معلماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات والقوى.

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة والأموال المهدرة والأوقات المبددة، والشباب الحيارى وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف⁽²⁾، ﴿فَاعِثُونِي بِقُوَّةٍ﴾ .

(1) روح المعاني (16 / 40).

(2) مع قصص السابقين (2 / 342).

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم، ثم يهاجم ويهزمهم، ولكن الله ﷻ يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

ولم يأت ذو القرنين بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يبنون السد بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أن عطاء الله ﷻ، عطاء إمكانيات، وعطاء ذاتي في النفس. . . عطاء الإمكانيات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس: هو القوة الذاتية داخلك التي تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس. . لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمّل بإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر. . وأن يعمل أعمالاً كثيرة⁽¹⁾.

إن ذا القرنين لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين، إنما استعان

(1) القصص القرآني في سورة الكهف محمد متولي الشعراوي، ص: 93.

بهؤلاء الضعفاء وطلب منهم أن يأتوا بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم بأجوج ومأجوج، بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم ولتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا أن نعوذ الناس على الكسل أو نعطيهم أجراً بلا عمل، لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً⁽¹⁾.

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض، فقوى المستضعفين وجعله قادراً على حماية أنفسهم من العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين بل نقلهم إلى ساحة العاملين.

فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة⁽²⁾.

ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمّ بناء السد:

- نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه

(1) القصص القرآني في سورة الكهف محمد متولي الشعراوي، ص: 94.

(2) فقه النصر والتمكين، ص: 150.

البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه⁽¹⁾.

- ذكر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه، فإن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكر العبد ربه عند توفيقه في عمل، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

- كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه، وتمكينه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، منع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

- كان القوم مهتدين بياجوج وماجوج، معرضين لإفسادهم ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتم عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية⁽²⁾.

﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾: وقبل أن يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته وقبل أن

(1) في ظلال القرآن (4/ 2293).

(2) مع قصص السابقين (2/ 350).

يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية، توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة أساسية وهي قوله : ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين مطلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه، فما يسرون خطوة إلا ياذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالم بهم مطلع عليهم، خبير بهم ونقف لتساءل عن الحكمة عن ذكر حقيقة إحاطة الله بأخبار ذي القرنين وجيشه وعلمه بها أثناء حديثه عن فتوحاته؟ إن الحكمة التي قد تبدو لنا هي: حرص القرآن على ربط كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشئته وعلمه سبحانه حتى لا ينسى الناس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحداث وحتى لا يظنوا أن الناس يتحركون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه، فهذا هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة، في الجبهة الغربية ثم في الجبهة الشرقية وقام بإنجازات عظيمة في الجبهة الشمالية، لكن الله مطلع على أعماله، محيط بأخباره، عالم بإنجازاته وهو مقدر لها ومريد لها سبحانه⁽¹⁾.

إن قصة ذي القرنين تدل على وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم، وقد قدم القرآن الكريم ﴿ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج واعتبر ذلك مقدمة لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً، لقد مكن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع،

(1) مع قصص السابقين في القرآن (2/ 325).

وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة ﴿ثُمَّ أُنْعَمَ سَبَّأًا﴾.

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل بها من الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن بواسطة ما سنه الله من أسباب في هذا الكون، ووسائل تؤدي إلى غاياتها المراد منها، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، ولبتقين كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة، إنما يتحصل بأسباب ووسائل سواء المادي منها والمعنوي، من ما تحقق به ذو القرنين⁽¹⁾.

هـ - أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

- الصبر: كان جلدأ صابراً على مشاق الرحلات، فمثلاً تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك⁽²⁾.

- مهابته: كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة،

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد. مجدي محمد عاشور، ص: 166.

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

ولكنها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين فعندما بلغ بين السدين ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة فمن الذي أدرهم بأنه لن يكون مفسداً مثل المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم⁽¹⁾.

- الشجاعة: كان قوي القلب جسوراً غير هياب من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث أن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر⁽²⁾.

- التوازن في شخصيته: فلم تؤثر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقهِ وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها - وقد سخرت له - كافية لإثناؤه عن تواضعه وطهارته وعفته.

- كثير الشكر: لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه⁽³⁾ سبحانه وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي﴾.

- العفة: كان مرتفعاً عن مال لا يحتاجه ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

(2) المصدر نفسه (2/ 624).

(3) المصدر نفسه (2/ 627).

الخراج، فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه⁽¹⁾.

إن التوازن المدهش والخلاب في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار⁽²⁾. وكذلك أكرمه الله بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها⁽³⁾، وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطي لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيداً من الله، ذلك التأيد الذي ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدل على هذه العناية أيضاً ضمير العظمة في قوله: ﴿وَأَيَّدْتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَيِّئًا﴾، أي: أمدّه بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها وعرفه السنة الأقوام الذين كان يغزوهم فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم⁽⁴⁾.

(1) الحكم والتحاكم (2/ 625).

(2) روح المعاني (16/ 30).

(3) البحر المحيط (6/ 159).

(4) روح المعاني (16/ 31).

لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة، وقيل: مهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض⁽¹⁾. يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَكَ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

لقد كانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الأرض شرقاً وغرباً، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران⁽²⁾.

الأسباب التي اتخذها داود عليه السلام للتمكين لدين الله:

قال تعالى: ﴿نَهَرُومُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ

(1) مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 304، مصطفى مسلم.

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 623).

وَأَتَيْنَهُ اللَّهُ الْمُلُوكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥١﴾ [البقرة: 251] .

أكرم الله تعالى داود بقتل جالوت، وبين القرآن الكريم أن داود
عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممن نجحوا في الامتحان
العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من
سقط ونجح من نجح فقد رفع داود عليه السلام راية النصر، وشرع في
إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى،
وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أوامر
الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يكتون
له في نفوسهم الاحترام والمحبة والتوقير، ومنذ ذلك الحين بدأ
نجمه يصعد في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيشه النصر يتبعه
النصر، حتى ولي الملك أخيراً وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح
الحكم في زمنة في عدله وحكمه، وكان أواباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة
والعبادة، والذكر والاستغفار، لقد كان منهج التغيير في زمن
داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان
والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمع الباطل وإضعافه ووصل
بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

- قال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ
أَوَّابٌ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطُّيَرِ نَحْشُورُهُ كُلُّ
لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلْنَا لِنِطَابٍ ﴿[ص: 17]-
[20] .

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على

صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المسلم كمال السعادة في الدنيا والآخرة، ومن أهم هذه الصفات:

- الصبر: فقد أمر الله تعالى نبينا محمد ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

- العبودية: وقد وصفه ربه بقوله: ﴿عَبْدًا﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف كوصف محمد بها ليلة المعراج ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1].

وكان النبي ﷺ إذا ذكر داود عليه السلام تحدث عنه بين فضله واجتهاده في العبادة: إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً⁽¹⁾.

- القوة على أداء الطاعة: والاحتراز عن المعاصي في قوله: ﴿ذَا الْأَيْدِي﴾ [ص: 17].

- والرجوع إلى الله بالطاعة في أموره كلها: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. وصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

- تسبيح الجبال والطيور معه: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَالطَّيْرَ تَحْسُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿[ص: 18، 19] أي أنه تعالى سخر الجبال تسبيح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال ﷻ: ﴿يَسْبِيحُ أَوَّابٌ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سج: 10].

(1) مسلم، ك الصيام، باب النهي عن صوم الدهر رقم 189.

قال ابن كثير: وكذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيحه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، وترجع معه، وتسبح تبعاً له⁽¹⁾.

- قوة الملك : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ [ص: 20] أي: قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً في جميع ما يحتاج إليه الملوك.

- الحكمة : ﴿وَأَيَّنَّا أَلْحِكْمَةَ﴾ [ص: 20] أي: أعطيناه الفهم والعقل والفتنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

- حسن الفصل في الخصومات : ﴿وَفَصَّلَ لِنِطَابٍ﴾ [ص: 20] أي: وألهمنا حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل⁽²⁾.

إن داود عليه السلام شد ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18] .

فوجه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه ﷻ : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَيَّنَّا أَلْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ لِنِطَابٍ﴾ [ص: 20] ، الذي جعلنا له ملكاً

(1) تفسير ابن كثير (4/ 29).

(2) تفسير المنير لوجه الزحيلي (23/ 183 . 185).

كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة حراسه الذين قيل: إنهم كانوا ألفاً كثيرة يتناوبون في حراسته ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره⁽¹⁾.

أ. استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْزَلُ السُّورَةُ﴾ [ص: 26].

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

- ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: فاقض بين الناس بالعدل، الذي قامت به السموات والأرض وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

- ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلة ومدة إلى النار، لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26] أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْزَلُ السُّورَةُ﴾ [ص: 26] أي: إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل لهم عقاب شديد يوم القيامة، والحساب الأخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق

لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل⁽¹⁾.

ب. هبة من الله مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبي الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أواب إلى الله . ﷻ كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ في أكثر الأوقات، ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص: 30].

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُكَا فِي الْهَرَمِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 78-79].

ج. ابتكار في صناعة الأسلحة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحِصَنَكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80] ، كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 126.

وذلك يقتضي الشكر، لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80] أي: على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسولا الله فيما أمر الله به والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة، وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشرعية الدين، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ لَهُ الْحَدِيدَ ۖ إِنَّ أَعْمَلَ سَيَفْعَلْ وَقَدَّرَ فِي السَّمَاءِ مَا تَعْمَلُونَ ۚ﴾ [سبا: 10-11].

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتيسيل الحديد له أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش⁽¹⁾.

وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ وُرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝١٥﴾ [الحديد: 25].

سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 129.

من التحضير والإبداع والبناء التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد «البأس الشديد» متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري و«المنافع» التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه «السلمي»؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرماً؟

إن الدولة المعاصرة التي تمتلك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيح لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل... وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها⁽¹⁾.

إن الله ﷻ منح الحديد لداود عليه السلام وعلمه كيف يليه، لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولا شك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي... الخ

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: 221. 222 عماد الدين خليل.

الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته البأس، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم ﴿اللَّهُ مَنْ يَصُرُّهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية الإسلام والتقدم به وتحقيق النصر للمؤمنين وإقامة شرع الله في مناحي الحياة.

إن قول الله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَهُ الْخَازِنَةُ﴾ [سَبَأ: 10] فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإنسانية في طاعة الله.

4 - الأسباب التي اتخذها سليمان عليه السلام للتمكين لدين الله :

تسلم سليمان عليه السلام قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتي سليمان عليه السلام الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلاً أوتي، ولكنه أعطي قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هبأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ، لقد أعطي النبوة، ومنح العلم وأوتي الحكمة، وذلك مثلاً أعطي أبوه من قبل⁽¹⁾.

أ - بداية التمكين :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَابِعُهَا

(1) فقه النصر والتمكين، ص : 130.

النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿[النمل: 15-16].

بدأ التمكين بتلك الإشارة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾، وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه، لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، ولالإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرد سليمان بالحديث: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَابِعُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16].

ب. فقه سليمان عليه السلام في إدارة الدولة:

إن القصص القرآني في سيرة سليمان أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية:

- دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان عليه السلام ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: 20] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة

فيها وخاصة الضعفاء⁽¹⁾.

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة. إن سليمان كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيئاً في أحوالهم، فسليمان عليه السلام لما لم ير الهدد بادر بالسؤال ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدْدَ﴾ [النمل: 20] يعني: «أهو غائب؟» كأنه يسأل عن صحة ما لاح له⁽²⁾، ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾ [النمل: 20]، سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغياب بعذر⁽³⁾.

- لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء، ويحسن للمحسن ولا بد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ، بل جعله متوقفاً على حجم الخطأ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: 21].

وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترفي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل⁽⁴⁾.

(1) تفسير القرطبي (13 / 177).

(2) تفسير الرازي (24 / 189).

(3) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 593).

(4) المصدر نفسه (2 / 593).

- الاهتمام بالأجهزة الأمنية، لا بد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام كما قال القرطبي - رحمه الله: فإنما صار صدق الهدهد عذراً له، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبيب إليه الجهاد⁽¹⁾

- الاهتمام بنصر دعوة التوحيد، ولا بد للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمر عن ساعد الجد في إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان. قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ يَكْتُنِي هَكَذَا فَاَلْفَهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظَرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: 28] .

قال القرطبي رحمته الله: في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقصر وإلى كل جبار⁽²⁾.

ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه ﴿إِنَّهُ

(1) تفسير القرطبي (13 / 189).

(2) المصدر نفسه (13 / 190).

مِنْ شَيْئَيْنَ وَلَئِنْ سَمِعَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَقُولُوا عَلَىٰ وَأَتَوْنِ مُسْلِمِينَ ﴿النمل: 30-31﴾.

- الترفع على حطام الدنيا: فملكة سبأ عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، تفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاؤوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السعادة القصوى وآتاه من الدنيا مالاً مزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سيفرح بها، أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَتُمِدُّوْنَ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَاَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَِلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: 36].

- المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب، وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام أن القوم ما زالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ يَبَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: 37].

ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سبباً في إسلام ملكة سبأ وانقيادها وجنودها لسليمان، ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 598).

النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعويين إلى الدين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسلیمان لما بلغه خبر مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى أن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه⁽¹⁾.

- الاستفادة من المهارات والمواهب: وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدي مهمة الهدد، ولكن سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة فتخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف، لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة⁽²⁾.

ج - أبرز صفات سليمان عليه السلام كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم ممكن له في الأرض وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى.

- الحزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (9/ 193).

(2) تفسير روح المعاني (9/ 193).

تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل ﴿لَا تُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ﴾ [النمل: 21] فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه . إن لم يؤخذ بالحزم . سابقة سيئة لبقية الجند⁽¹⁾ .

- التريث والتأني قبل الحكم، فلعل للغائب عذراً أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها : ﴿أَوْ لِبَأْتِيَّ سُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 21] أي: بحجة تبين عذره في غيبته⁽²⁾ . وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخظة قبل سماع الحجة .

- سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه : ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَحِثْلُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَلَّ بِقَيْنِ ۖ﴾ [٢٢] إِيَّيَّ وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُورِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ ۖ [٢٣] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۖ [٢٤] أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

(1) في ظلال القرآن (5/ 2638).

(2) تفسير القرطبي (13/ 180).

يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿النمل: 22-26﴾، كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

- قبول الاعتذار ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريره إلى الله، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذه وانتقل إلى تحري الخير.

قال القرطبي رحمته الله: هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدراً العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أَعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه⁽¹⁾.

- التروي في تصديق الخبر، فهذا الذي حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة، الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال ﴿سَنَنْظُرُ﴾ [النمل: 27] وهو من النظر، أو التأمل والتحري⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: 27]، يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتخلص من الوعيد⁽³⁾.

- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم،

(1) تفسير القرطبي (13/ 184).

(2) تفسير الرازي (24/ 193).

(3) تفسير ابن كثير (3/ 349).

وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة، فلما وجد سليمان طلبه مجاباً، وأمره مطاع سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين : ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ [النمل: 40] أي: رأى العرش ثابتاً عنده قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: 40] أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي ليختبرني أشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه⁽¹⁾.

- التواضع وهو في قمة المجد والتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل: إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعاً لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير مر على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصر نملة، فأشخص النظر صوابها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَكْنِئُهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18] . نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم، قال القرطبي رحمته الله: التفاته مؤمن : أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 600).

نملة، فما فوقها إلا بالاً يشعروا⁽¹⁾.

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطيور والهوام.

لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرق قلبه الكبير، رفقاً لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها وإيصال العدل إليها، وسرَّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور⁽²⁾.

﴿فَبَسَّ صَاحِجًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: 19].

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه . في جنب الله . في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه ولهذا قال: ﴿وَأَذِلَّنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19] .

ثانياً: الأسباب والتوكل:

التوكل على الله سبحانه . وتعالى . لا يمنع من الأخذ بالأسباب فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل

(1) تفسير القرطبي (13 / 170).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 589).

عليها⁽¹⁾، فالتوكل: هو قطع النظر في الأسباب بعد تهيئة الأسباب، كما قال ﷺ: «اعقلها وتوكل»⁽²⁾.

ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا جِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71].

- وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

وفي جانب التوكل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122].

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

- وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

ولقد أرشدنا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبه ﷺ على عدم تعارضها، عن عمر بن الخطاب ؓ عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماساً، وتعود بطناناً»⁽³⁾.

(1) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 252.

(2) صحيح ابن حبان (2 / 510).

(3) سنن الترمذي (4 / 573) رقم 2344 حسن صحيح.

في هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها⁽¹⁾.

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية⁽²⁾.

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها، وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

- الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرقُ ويغلظ وبين ذلك.

- ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لا تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان ما لا يرى النجاة والفرج والوصول إلا بها، ويتوكل على الله

(1) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 252.

(2) مدارك السالكين لابن القيم (2 / 130).

توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل واعتماداً على الله وحده⁽¹⁾.

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»⁽²⁾.

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

- تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

- وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه وشرائعه وحقايقه تحت هذه الكلمات النبوية⁽³⁾.

1 - القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين:

إن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وهذا من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره

(1) مدارك السالكين لابن القيم (3 / 501).

(2) مسلم، ك القدر، باب الأمر بالقوة (4 / 2052) رقم 2664.

(3) في ظلال القرآن (2 / 919).

الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غلط⁽¹⁾.

2 - التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب:

الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده وأذن فيها وهو يعتقد أن المسبب هو الله ﷻ، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله ﷻ، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب⁽²⁾.

وبالتتبع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين نجد أن جمهورهم يقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعده الله، ويوقن بأن قضاءه واقع ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سبب قدح في توكله⁽³⁾، وفي القصص القرآني ما يجلي هذا التوازن أيما تجلية، ويبين كيف مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع وعلى الوجه الذي تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

أ - قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند وصيته لهم قبل دخولهم

(1) فتاوى ابن تيمية (8 / 529 ، 530).

(2) شعب الإيمان للبيهقي (2 / 79).

(3) السنن الإلهية، د. مجدي محمد عاشور، ص: 215.

مصر لجلب ما يحتاجونه من طعام ومواد غذائية حين أصاب بلدهم الجذب والقحط، فقد وضاهم: قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئُ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ آبَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: 67] .

فيعقوب عليه السلام ضرب لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكل على الله، إذ في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ آبَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: 67] تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه⁽¹⁾.

فقال: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 67] أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناءً مبتدئاً من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عندما أمر الله، فإن صادق ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط⁽²⁾.

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدباً مع واضح الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون

(1) روح المعاني للالوسي (13 / 19).

(2) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (13 / 12).

ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليها قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميّسر لما خلق له»⁽¹⁾.

وبهذا يثبت أن الأسباب لا بد لها من سياق قوي من التوكل، تدور في فلكه ولا تخرج عن حقيقته، ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامتنال أمر الله، وذلك لأن الأسباب العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها مفتقرة إلى ما وراءها. كان من الواجب على من يتوكل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوكل إليها على سبب وراءها، ليتم لها التأثير، ويكون ذلك منه جرياً في سبيل الرشد والصواب ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه في الأمور كلها، فإن الله لا إله إلا هو، رب كل شيء، وهذا هو الله سبحانه وحده لا شريك له، فإن الله لا إله إلا هو رب كل شيء، وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنْ كُنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68]، لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مَوْلَىٰ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 67]، فالآية: فأننى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين⁽²⁾.

(1) فتح الباري (8/ 709)، مسلم (4/ 2040).

(2) تفسير الثعالبي (2/ 247)، السنن الإلهية، ص: 217 د. مجدي محمد عاشور.

ب - قصة مريم عليها السلام: وهي . كما وردت في القرآن الكريم - تبين لنا بوضوح بالغ أنه لا اختلاف ولا تباين بين مقامي الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلُّ له ملاساته وظروفه التي ترجع مقاماً على آخر في بعض الأوقات والأحوال .

كانت مريم في بداية حياتها يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِمُ أَنَّ لَّسِبَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ يَنْزِرُ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] ، فلما ولدت أمرت بهز الجذع، قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن التَّصَب، فلما ولدت عيسى عليه السلام وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عبادته ⁽¹⁾ .

ج - السنة النبوية: فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه ﷺ ظاهر في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة في الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحقّ الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يظن برسول الله ﷺ أنه مال إلى شيء من الأسباب غفلة مقدار طرفة عين ⁽²⁾ .

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن - على وجه التفصيل - حادث الهجرة الذي اصطحب فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد استوفيا

(1) تفسير القرطبي (11 / 96.95)، السنن الإلهية د. مجدي، ص: 217.

(2) فتح الباري لابن حجر (10 / 212).

هما الاثنان في هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحداً منها⁽¹⁾.

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدّد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً، وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذي يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطؤون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين⁽²⁾.

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ، شرع النبي ﷺ في التنفيذ، نلاحظ الآتي:

- وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعاب، وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:

- جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحرّ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

- إخفاء شخصيته ﷺ في أثناء مجيئه للصدّيق وجاء إلى بيت

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 217.

(2) الأساس في السنة، سعيد حوي (1/ 357).

الصَّدِيق مثلاً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم⁽¹⁾.

- أمر ﷺ أبا بكر أن يُخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

- كان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر⁽²⁾.

- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للمقوم، والاستعانة في ذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، ما دام على خُلُق ورزانه، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها⁽³⁾.

- انتقاء شخصيات لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

- وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

(1) في السيرة النبوية. قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص: 141، د. إبراهيم علي أحمد.

(2) من معين السيرة للشامي، ص: 147.

(3) الهجرة في القرآن الكريم أحزمي سامعون، ص: 361.

- فكرة نوم علي بن أبي طالب عليه السلام مكان الرسول ﷺ فكرة ناجحة، قد ضللت القوم، وخدعتهم وصرفتهم عن الرسول ﷺ، حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول ﷺ، فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً مُسجى في برده، في حين النائم هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

- وقد كان عمل أبطال هذه الرحلة على النحو التالي:

- علي عليه السلام: ينام في فراش الرسول ﷺ، يخدع القوم، ويُسلم الودائع، ويلحق بالرسول ﷺ بعد ذلك.

- عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

- أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنود المشركين، بحثاً عن محمد ﷺ ليقتلوه.

- عامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قَدَّم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتعمية.

- عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول ﷺ، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص

الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة⁽¹⁾.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعو ويستنصره أن يكمل سعيه بالنجاح، وهنا يُستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار وترسيخ فرس سراقه في الأرض ويكمل العمل بالنجاح⁽²⁾.

وأما على مستوى السنة القولية . في هذا الصدد . نجد أن النبي ﷺ قال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽³⁾، في الوقت الذي ثبت فيه أن النبي ﷺ أكل مع المجذوم⁽⁴⁾. وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه ﷺ أكل مع المجذوم ليبين أن الله هو الذي يمرض ويشفي، وأنه لا شيء يعدي بطبعه، نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده من أن

(1) أضواء على الهجرة، توفيق محمد، ص: 393. 397.

(2) السيرة النبوية للصلابي (1 / 480).

(3) فتح الباري على صحيح البخاري (10 / 158).

(4) سنن الترمذي (4 / 266) صحيح الإسناد.

الأمراض تعدي بطبعها من إضافة إلى الله، فأبطل النبي ﷺ إعتقادهم ذلك، في حين نهى النبي ﷺ عن الاقتراب من المجذوم، ليبين أن هذا من الأسباب التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تقتضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فائرت، وفي ذلك فسحة لمقام التوكل⁽¹⁾ على الله، وهذا يبين أن لكل حالة مقامها التي شرعها الله ﷻ لها. ومن ذلك ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتوكلون، إنما التوكل رجل ألقى حبة في بطن الأرض وتوكل على ربه ﷻ⁽²⁾.

ثالثاً: الأسباب والمسببات:

إن الله تعالى قدر الأشياء بأسبابها، فالقدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ومن الأدلة على ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، ويعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وهم يعمل أهل النار يعملون»⁽³⁾.

وفي المضممار نفسه أخبر النبي ﷺ صحابته بأن الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ:

(1) فتح الباري (10 / 160. 161).

(2) شعب الإيمان (2 / 81)، السنن د. مجدي، ص: 219.

(3) مسلم (4 / 2050)، السنن د. مجدي، ص: 218.

«من كان من أهل السعادة فسيبته إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيبته إلى عمل أهل الشقاوة اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُتَرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخْلَ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْمُتَرَى﴾ [الليل: 5-10].

وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والانتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره⁽¹⁾.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في هذا الحديث في شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى غيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر⁽²⁾.

فلا منافاة بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، فمن القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذور، فيقال: إن سبق القضاء

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (16 / 196).

(2) شفاء العليل لابن القيم، ص: 53.

بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسببه، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته⁽¹⁾.

ولبيان ارتباط الأخذ بالأسباب وتناسقه مع الإيمان والقدر وفق الحكمة الإلهية يقول الرازي عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدُنُ مَأْمُونًا حُدُودًا جُدْرَكُمُ﴾ [النساء: 71] أنه لما كان الكل لقدر كان الأمر بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة من الحذر كلاماً متناقضاً، لأنه لما كان هذا الحذر مقدراً، فأى فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر؟⁽²⁾.

وحاصل تحقيق كلام الرازي: أن القدر عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده⁽³⁾.

ويؤيد ذلك من السنة النبوية ما ورد أنه قيل للنبي ﷺ: أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقا نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال ﷺ: «هي من قدر الله»⁽⁴⁾، وذلك لأن الله تعالى يعلم

(1) إحياء علوم الدين (3 / 202)، الفتاوى لابن تيمية (8 / 69-70).

(2) التفسير الكبير للرازي (5 / 308).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 210.

(4) سنن الترمذي (4 / 399)، حسن صحيح.

الأشياء على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره، وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً، وهذا عام في جميع الحوادث⁽¹⁾.

إن قدر الله تعالى وقضاه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحرمننا المأمول علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر⁽²⁾.

إن القضاء والقدر اللذين ورد في القرآن ذكرهما - وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة - سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون وربط فيه بين الأسباب والمسببات، وبين النتائج والمقدمات سنة كونية دائمة، لا تتخلف والحاصل أن الإسلام لا يسمح أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف وكان بعث الرسل وإنزال الكتب، ودعوة الإنسان إلى دين الله وما يجب، ووعدته بالشواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشر. باطلاً. لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده⁽³⁾.

(1) مجموع الحوادث (8 / 275).

(2) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (4 / 138).

(3) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص: 212.

1 - تأثير السبب في المسبب:

إن الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أخر تعاونها، ولها. مع ذلك. أضداد تمانعها، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته، كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرة العبد سبب من الأسباب، وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة⁽¹⁾.

ولا قال أحد من أئمة المسلمين - لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا مالك، ولا أبو حنيفة ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث، ولا أمثال هؤلاء - إن الله يكلف العباد ما لا يطيقونه. ولا قال أحد منهم: إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله، أو لا تأثير لها في كسبه، ولا قال أحد منهم: إن العبد لا يكون قادراً إلا حين الفعل، وإن الاستطاعة على الفعل لا تكون إلا معه، وإن العبد لا استطاعة له على الفعل قبل أن يفعله، بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات استطاعة لغير الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ﴾ [آل عمران: 97] .

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8 / 487).

- وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ يَوْمًا﴾ [المجادلة: 4] .

وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب⁽¹⁾.

والمقصود بتأثير السبب في المسبب، أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله ﷻ الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا يكون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 57] .

- وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [الزلزال: 60] .

- وقال تعالى: ﴿فَتَنَبَّهَهُم بِعِذِّهِمُ اللَّهُ بِأَنذِيكُمُ﴾ [التوبة: 14] .

كما أن تأثير العبد في فعله يتوقف على تحقيق الشرط وانتفاء المانع، فإذا فُسر التأثير بوجود شرط الحادث أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع. وكل ذلك بخلق الله تعالى. فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا

(1) فتح الباري على صحيح البخاري (2/ 587).

الاعتبار، وإن فُسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالآثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ند له، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

- يقول تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدْيِهِ﴾ [فاطر: 2] .

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا إِلَيْكَ رَزَقَ اللَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَبْلُغُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ ذَلِكَ لَهُ﴾ [سبا: 22 . 23] .

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38] ، ونظائر هذا في القرآن كثيرة⁽¹⁾.

إن من الأسباب ما يعرفه كل إنسان بفطرته مثل الوطاء سبب الولد، وإلقاء البذور سبب للزرع، والأكل سبب للشبع، وشرب الماء سبب للري، ومن الأسباب ما يجادل فيه بعض الناس مثل اتباع شرع الله سبب للسعادة في الدنيا والآخرة والخروج على هذا الشرع سبب للشقاوة في الدنيا والآخرة، والدعاء سبب لدفع المكروه ونوال

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 134 . 135).

المطلوب، ومن الأسباب ما يخفى على كثير من الناس مثل أسباب الأحداث الاجتماعية وما يصيب الأمم من عز وذل وتقدم وتأخر ورخاء وشدة وهزيمة وانتصار ونحو ذلك، فهذه الأحداث لها أسبابها التي تستدعي هذه النتائج ولا يمكن تخلف هذه النتائج إذا انعقدت أسبابها، فهي كالأحداث الطبيعية من تجمد الماء وجليانه ونزول المطر، فهذه أحداث لها أسبابها التي قدّرها الله فمتى تحققت هذه الأسباب تحققت هذه الأحداث وكل الفرق بينها وبين الأحداث الاجتماعية أن الأولى أسبابها منضبطة ويمكن معرفة حصول أكثرها إذا عرفت أسبابها، أما الثانية أي الأحداث الاجتماعية فإن أسبابها كثيرة جداً ومتشابكة، ويصعب الجزم بوقت حصول نتائجها وإن أمكن الجزم بحصول هذه النتائج، والشرع دلنا على هذا القانون العام قانون السبب والمسبب في نصوص كثيرة والمقصود أن ما قدّره الله وقضاه إنما قدّره بأسباب، فمن أراد الحصول على نتيجة معينة فلا بد من مباشرة السبب المفضي إليها⁽¹⁾.

وما ذهب إليه العلماء المحققون في فاعلية السبب في مسببه بإذن الله تعالى هو ما يتفق مع ظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وهو المنهج الوسط والطريق الأسدّ في إعمال النصوص كلها على وجه الجمع دون الاقتصار على بعضها، وهذا ما ذكرناه هو ما ذهب إليه السلف الصالح وتلقاه أهل العلم بالقبول، ولا يخفى أن اعتناق هذا الرأي يفسح الطريق أمام القيام بأعباء خلافة

(1) الإيمان بالقضاء والقدر د. عبد الكريم زيدان، ص: 20.

الإنسان في الأرض والتفكر في سنن الله في الخلق وتوطئة للوقوف على أسبابها ونتائجها، ومن ثم التفاعل مع معطياتها بما يحقق إناطة تحمل المسؤولية بالمكلفين في الدنيا والآخرة، وهو الأمر الذي يوسع ويثري من دائرة الدراسات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وفق المنهج الإسلامي، مما يعيد لهذه الأمة شهودها الحضاري ووسطيتها الشاملة التي ضمنتها لها الشرع الشريف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، وبذلك تعود الأمة إلى أصولها وخيريتها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وبالأحرى تتخلص من تبعيتها للثقافات الوافدة التي ترزخ تحت وطأتها إلى يومنا هذا رغم عدم انسجامها مع معطيات الشرع وحقائق الفطرة⁽¹⁾.

2. قال ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر»⁽²⁾:

وشرح هذا الحديث:

أن «العدوى»: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح وكما يكون في الأمراض الحسية يكون في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، فقله ﷺ: «عدوى» يشمل العدوى الحسية والمعنوية.

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 203.

(2) متفق عليه المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 208)، البخاري رقم 5757، مسلم رقم 2220.

و«الطيرة»: هي التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم.

و«الهامة»: فسرت بتفسيرين:

الأول: داء يصيب المرضى وينتقل إلى غيره، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله وتنق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون في صورة الهامة وهي نوع من الطيور تشبه البومة أو هي البومة، تؤذي أهل القتيل بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا: إنها تنق به ليموت ويعتقدون قرب أجله وهذا باطل.

و«صفر»: فسر بتفاسير:

الأول: أنه شهر صفر المعروف والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنه داء في البطن يصيب البعير وينتقل من بعير إلى آخر، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: صفر شهر صفر، والمراد به النسيء الذي يضل به الذين كفروا، فيؤخرون تحريم شهر المحرم إلى صفر يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً.

وأرجحها أن المراد صفر حيث كانوا يتشاءمون به في الجاهلية، والأزمة لا دخل لها في التأثير، وفي تقدير الله ﷻ فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تدل على وجوب التوكل على الله، وصدق العزيمة ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور، والنفي في هذه الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله فما كان منها سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه ولسببته، فالعدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»⁽¹⁾. أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى وقوله ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽²⁾، الجذام: مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، فالأمر بالفرار حتى لا تقع العدوى، وفيه إثبات العدوى لتأثيرها، لكن تأثيرها ليس أمر حتمي بحيث تكون علة فاعلة، ولكن أمر النبي ﷺ الفرار من المجذوم وأن لا يورد ممرض على مصح، من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] ، ويقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى، فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى»، قال رجل: يا رسول الله أرايت الإبل تكون في

(1) البخاري رقم 5771.

(2) البخاري رقم 5707.

الرمال مثل الضبا فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: «فمن أعدى الأول؟»⁽¹⁾، فالنبي ﷺ أشار بقوله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» فمن أعدى الأول إلى أن المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحات بتدبير الله ﷻ، فالمرض نزل على الأول بدون عدوى بل نزل من عند الله ﷻ، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم وجرب الأول ليس معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب ثم يرتفع ولا تموت. وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية قد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون، فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه، وقد جاء أن النبي ﷺ قدم عليه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له: «كل»، أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي، وهذا الجمع الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث وإذا أمكن الجمع وجب لأن فيه إعمال الدليلين⁽²⁾.

3 الجزء الأخروي والأسباب:

لم يقتصر قانون السببية على إقامة الكون وتسييره فحسب ولا على الثواب والعقاب الدنيوي وحده، وإنما تجاوز ذلك ليكون الأصل أيضاً في الثواب والعقاب الأخروي، وذلك من كمال العدل الرباني والحكمة البالغة، والأصل في ذلك قوله تعالى: «مَّا يَفْعَلُ

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 212).

(2) المصدر السابق نفسه.

اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاحِكًا عَظِيمًا ﴿١٤٧﴾ [النساء: 147] ، فهذه الآية دالة على اعتبار سنة الأسباب حتى في الجزاء الأخروي، إذ لا عذاب إلا بكفران، فإذا انتفى السبب . وهو الكفر سواء الاعتقادي أو العملي . فلا عذاب بل هو نعيم ودخول في معية المؤمنين كما دلت على ذلك الآيات السابقة لهذه الآية، وهي التي بيّنت طريق الخلاص للمنافقين من نفاقهم وسبيل قبول الله أعمالهم، فقالت بعد توعده المنافقين بالدرك الأسفل من النار: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146] .

والآيات في اعتبار الأسباب في الجزاء الأخروي كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾ [الحاقة: 24] .

- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19] .

- وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [١٨١] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ ﴿[آل عمران: 181-182] .

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿[النبا: 24-26] .

- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95]⁽¹⁾.

4 - الحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة:

ترشدنا الآيات القرآنية إلى أن الأمر الشرعي قائم على حث الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله له بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

فقد تكفل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

- وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22].

- وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَتَى مِنَ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [المنكبات: 60]. ولكنه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة⁽²⁾.

ومع تقدير الله للعبد في الرزق، فيجب عليه طرق الأسباب في طلب الرزق، وهذا لا ينافي التوكل، وزيادة الرزق جعل الله لها أسباباً منها:

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 145.

(2) المصدر نفسه، ص: 146.

أ - صلة الرحم: قال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽¹⁾.

ب - تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

وكذلك اجتناب البغي، وظلم العباد، والرياء، وأكل مال اليتيم.

وكذلك الأسباب الطبيعية والمادية، كالسعي للرزق وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة وحسن اختيار المكاسب النافعة ونحو ذلك، وهذه الأسباب والمسببات كلها بقدر الله تعالى ومشيئته⁽²⁾.

وما أجمل ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض الناس في زمنه عندما قال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم أرزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]⁽³⁾.

5. مراعاة صورة الأسباب في الخوارق:

إذا كان الأصل في السنن الجارية هو تعلق المسببات بأسبابها، وارتباط النتائج بمقدماتها، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة

(1) البخاري رقم 1961.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يوسف، ص: 501.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 56.

المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق ليظل قانون السببية عالقاً بذهن المكلف، ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة، والقرآن الكريم زاخراً بالآيات التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدر⁽¹⁾، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَهْرِبْ بِمَصَاكَ الْحَجَرِ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ أُنثًى عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]، وفي الكلام حذف تقديره: فضرب فانفجرت⁽²⁾.

قال القرطبي: وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وخلق الحجر من غير ضرب، ولكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الميعاد⁽³⁾.

6. تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله:

إذا أراد وقوع شيء في هذا الوجود هياً له أسبابه التي يقع بها، وذلك لأنه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرم إلا بمشيئة الله ﷻ، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب. حقيقة. في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل إذا أراد الله أمراً يَسِّرْ أسبابه، ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حشيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هياً الله تعالى

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 147.

(2) المصدر نفسه، ص: 148.

(3) الجامع لأحكام القرطبي (1 / 419).

أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم، ولم يجعل نصرهم . في ظاهر الأمر . من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة، وقد تجلت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: ﴿إِذْ يُفَشِّكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

فإن اغشاهم النعاس كان من أسباب النصر، لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب⁽¹⁾.

7. الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع:

فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع⁽²⁾، ولا بد من تمام الشروط وزوال الموانع . أي في انتاج الأسباب . وكل ذلك بقضاء الله وقدره وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولا بد أيضاً من صرف المواقع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا

(1) تفسير التحرير والتنوير (9/ 278).

(2) مجموع الفتاوى (8/ 133).

يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٦) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الَّذِينَ نَزَّلْنَاهُ ﴿[الواقعة: 63 . 64] أي: إذا كانت منكم الحراثة والبذر .
مع اعانتنا لكم على ذلك . فإن إتمام الزرع والإثمار وتوفير الشروط
ولإزالة الموانع من شأننا نحن، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ
السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأَخْرَجْنَا
بِهِجْرًا مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: 60].

فقد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله، ولقطع شبهة
أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغتراراً
بالسبب فبودر بالتأكيد بأن الله خلق الأسباب وهو خالق المسببات
بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب، وتوفير القوى
الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب،
فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر، أو يقتلها، ولذلك
جمع بين ﴿وَأَنْزَلَ﴾ وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ تنبيهاً على إزالة الشبهة⁽²⁾.

8. إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم:

لقد ثبت بنص القرآن أن الأسباب الشرعية هي محل حكم الله
ورسوله ﷺ وهي في اقتضاها لمسبباتها قدراً، فهذا شرع الرب
وذلك قدره، وهما خلقه وأمره، والله له الخلق والأمر، ولا تبديل

(1) مجموع الفتاوى (8 / 167).

(2) تفسير التحرير والتنوير (20 / 11).

لخلق الله، ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالف سبحانه بالأسباب القدريّة أحكامها، بل يجريها على أسبابها وما خُلِقَتْ له، فهكذا الأسباب الشرعية لا يخرجها عن سببها وما شُرِعت له، بل هذه سنته شرعاً وأمرأً، وتلك سنته قضاءً وقدرأً، وسنته القدريّة قال تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

فالمسببات مرتبطة بأسبابها شرعاً وقدرأً، ولذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم، كما أن إنكار الأسباب لأن تكون موصلة لها بأنها أمر مردود، بل أن النتائج المترتبة على إنكار قانون النسبية كافية لهدم حقائق العلوم كلها، فإن العلوم جميعها تستند إلى هذا القانون⁽¹⁾.

ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، وهو طعن في الشرع أيضاً فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْزَلْ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخِيَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ وَفَائِهِ ۚ﴾ [الحجّة: 5].

- وقال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَهُ اللَّهِ مَنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: 16]⁽²⁾.

والحاصل أنه قد ثبت بالقطع أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر: 49].

- وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا﴾ [الفرقان: 2].

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 158.

(2) المصدر نفسه، ص: 158.

- وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19] .

- وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216] .

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تتبعها نتائجها وقد لا تتبعها، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة التي تنشئ الآثار والنتائج وتبهي الظروف لتحقيقها، كما تنشئ الأسباب والمقدمات ﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30] .

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يُقَدِّر آثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجاة من الوسواس والهواجس : ﴿الَّذِينَ يَبِذُوكُمْ فِي الْفَنَاءِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعَذِّبُكُمْ مَقْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] ⁽¹⁾ .

9. منازعة الأقدار بالأقدار :

من الأصول القطعية مباشرة الأسباب وعلى هذا فإن تركها قدح في الشرع مما يدحض إدعاءات الجاهل والمغرضين، ونزيد هنا فنقول

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 161.

أن صاحب الإيمان بالقدر ينازع القدر بالقدر، بمعنى أن لا يستسلم للقدر مادام له دافع أو رافع أو مانع، فيأخذ من الأسباب ما يحقق ذلك، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، وما قاله هذا الشيخ الجليل العارف بالله حق، ويريد بقوله رحمه الله تعالى أنه يدافع المقدور مادام في مدافعتة مجال مستعيناً بالله تعالى مبتغياً وجهه، وتفصيل ذلك أن المسلم مطالب بأخذ الوقاية من المحذور لثلا يقع ويرفعه ودفعه إذا وقع، فمن الأول أخذ الحماية لثلا يقع المرض والابتعاد عن محل الوباء لثلا يصاب به الإنسان، والتحصن وراء الجدر والحصون في الحروب وقاية من العدو.

وليس في هذه الوقاية ومباشرة أسبابها مناقضة للإيمان بالقدر، وإنما أخذ بقدر لمنع قدر، والقدر مادام مجهولاً عندنا وهو محتمل الوقوع فنحن نباشر أسباب عدم وقوعه، فإن كان مكتوباً عند الله وقوعه لم يتيسر لنا مباشرة أسباب دفعه، أو تيسر لنا هذه الأسباب ولكن لا تؤدي إلى نتيجتها لوجود مانع يمنع من افضاؤها إلى مسببها، والمقصود هنا أن مباشرة الأسباب لمنع وقوع ما يحتمل وقوعه من الأقدار ليس فيه مناقضة للمعنى الصحيح للقدر، وإنما هو أخذ بقدر لمنع قدر لأن السبب والمسبب بقدر الله تعالى جاء في الحديث الشريف: قيل يا رسول الله أرايت أدوية نتدوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتيقها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»⁽¹⁾، فإذا كان من قدر الله أن لا يصاب الإنسان بالمرض قدر الله له مباشرة ما يدفع به وقوع المرض، وعندما وصل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مشارف الشام وعلم بنزول الطاعون فيهم وهم

(1) سنن الترمذي (4/ 399) حسن صحيح.

بالرجوع قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرار من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ونقع في قدر الله، ثم قال عمر رضي الله عنه ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبل وأمامك أرض مجدبة وأخرى مخصبة، فإذا نزلت بالمجدبة أو المخصبة أو تحولت من المجدبة إلى المخصبة، فكل ذلك بقدر الله⁽¹⁾.

ومن النوع الثاني من منازعة الأقدار بالأقدار مباشرة الأسباب الرافعة للقدر بعد وقوعه كتناول الدواء لرفع المرض، وطرد الأعداء والكفرة من ديار المسلمين بعد تسلطهم بأعداد العدة لذلك ثم قتالهم، ومثاله أيضاً انحباس المطر يرفع بالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفاره، كما هو معروف في الفقه في باب صلاة الاستسقاء، وكما دل عليه قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام وما قاله لقومه، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ غَافَرًا ۝١٠ ثُمَّ بَرَسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يَدْرَارًا﴾ [نوح: 10 - 11]. فالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفارة من أهم الأسباب لدفع المكروه ورفع بعد وقوعه، ومنعه من الوقوع قبل أن يقع، وهذه معاني يفقهها أهل الإيمان، لا أهل الكفر والجهالة والعصيان⁽²⁾.

رابعاً: الدعاء والقدر:

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة... سبب لجلب المنافع ودفع المضار⁽³⁾، ثم الدعاء - مع ثبوت كونه سبباً - داخل في

(1) الغيمان بالقضاء والقدر عبد الكريم زيدان، ص: 29.

(2) المصدر نفسه، ص: 30.

(3) الفتاوى (10 / 550).

القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإن الدعاء من جملة ما سبق به القضاء، لأن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً، وقدر كل شيء تقديرًا، ولا يمكن أن يخرج شيء عن قضائه، فلهذا الدعاء نفسه داخل القضاء، إذا قدر الدعاء وأنه سبب لكذا فلا بد أن يدعو الرجل وأن يتسبب ذلك فيما جعله الله سببًا، فالدعاء سبب لجلب النفع، كما أنه سبب لدفع البلاء، فإذا أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولهذا أمر ﷺ عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء والذكر، والاستغفار والتوبة، والاحسان بالصدقة والعتاقة، فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه، كما في الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان»⁽¹⁾، وهذا كما لو جاء عدو فإنه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهد له، وإذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء، فكذلك الأعمال الصالحة والدعاء⁽²⁾. ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهد قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «هل تنصرون إلا بضعائكم»، ولفظ النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم»⁽³⁾، والحاصل إن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء داخل تحت القضاء وليس خارجاً عنه⁽⁴⁾.

(1) صحيح الجامع للألباني (6 / 241) رقم 7616.

(2) الدعاء ومنزله من العقيدة جيلان العروسي (1 / 356).

(3) البخاري (6 / 88) رقم 2896، النسائي (6 / 37) رقم الباب 37.

(4) الدعاء ومنزله من العقيدة (1 / 357).

1 . دلالة القرآن الكريم على ذلك :

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].
- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].
- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32].

إن الله ﷻ نهى في هذه الآية عن الحسد، وتمني زوال نعمة الغير، وأمر بسؤاله من فضله فدل على أنه بسبب السؤال يعطي مثلما أعطى لذلك الذي فضله، وربما يعطي أكثر، فلو كان الدعاء والسؤال لا أثر له في إعطاء السائل ما تمناه وسأله، لزم أنه لا فائدة في الأمر به في هذا المقام، وهذا يخالف ما يقتضيه سياق الآية⁽¹⁾.

وقد وردت آيات كثيرة جداً، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين من المحن والبلايا والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم وتضرعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجاب الله لهم، وكشف عنهم تلك المحن بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظ دعواتهم وصيغ ابتهالاتهم لنقتدي بها، ونأخذ العبر والدروس، ومن تلك الدروس التي نأخذها تأثير الدعاء وفائدته العظيمة في جلب المنافع ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنه الغذاء الروحي لاسيما عند نزول الشدائد المدلهمة⁽²⁾، ومن ذلك :

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1 / 359).

(2) المصدر نفسه (1 / 360).

أ. مما حكى الله لنا عن نوح عليه السلام مما يدل على تأثير الدعاء :

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ۝٧٥﴾ [الضافات: 75]، ما أصرحها في تأثير الدعاء وأوضحها وأبينها من حجة قاطعة، وما أبلغها من برهان ساطع، ومثلها قوله تعالى في قصة نوح أيضاً: ﴿وَنُوْحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ ونصرته من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقنهم أجمعين ﴿[الأنبياء: 76-77].

ب. دعاء أيوب عليه السلام:

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ وءاتيناهُ أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين ﴿[الأنبياء : 83 . 84]، تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية في الموضعين: فاستجبنا، فكشفنا، ودلالة فاستجبنا وكشفنا اللغوية ودلالة السياق هذه الدلالات الواضحة على تأثير الدعاء⁽¹⁾.

ج. دعاء يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧﴾ فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك نُشِى الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنبياء : 87 . 88].

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 362).

فدلت الآيتان على أن الدعاء هو السبب في نجاته من عدة أوجه، منها إلغاء السببية، ومنها كلمتا: استجبنا ونجينا كما دلت على أن هذا ليس خاصاً به بل المؤمنون عامة إذا وقعوا في شدة واستغاثوا بربهم فهو ينجيهم، كما دلت أيضاً على أنه لولا الدعاء لما نجا من هذا الكرب العظيم ولبقي في بطن الحوت، وقد صرحت بذلك آية أخرى قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٧﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الصفات : 143 . 144].

فكلمة لولا في مثل هذا الموضع تدل على امتناع الجملة الثانية لوجود الأولى⁽¹⁾، وهذا صريح قاطع في أن الدعاء هو السبب في نجاته ولو لم يحصل الدعاء لما نجا ولبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة⁽²⁾.

د - دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَمْ زَوْجَتُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِئُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء : 89 . 90].

ففي هذا ترتيب للاستجابة على النداء، كما أن فيه تعليلاً للاستجابة بكونهم مسارعين في الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة⁽³⁾.

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 362).

(2) المصدر نفسه (1/ 362).

(3) المصدر نفسه (1/ 363).

هـ - في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ رِيعَوتَ وَمَلَأْهُ رِيعَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴿ [يونس: 88-89].

فصرحت الآياتان بإجابة دعوتهما واستغاثتهما بالله تعالى وأن ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى فدل هذا على ترتيب الإجابة على الدعاء ترتب المسبب على السبب⁽¹⁾ وفي قوله تعالى في قصة تضرع موسى وابتهاله إلى الله قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝﴾ إلى أن أجابه الله بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمُوسَى ۝﴾ [طه: 36]، ما أوضحها في الدلالة على تأثير الدعاء في الإجابة⁽²⁾.

و - دعاء المؤمنين من الأمم السابقة :

- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْذَرًا وَكُنْتَ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَرَمُوهُمْ يَازِيدُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 249 . 250].

- وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾ فَقَالَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [آل عمران: 147-148].

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 364).

(2) المصدر نفسه (1/ 364).

2 - دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله :

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [التل: 62].

فالآية صريحة الدلالة على أن دعاء المضطر هو السبب في إجابة سؤاله وكشف السوء عنه، وهذا من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية ولهذا أعقبه بقوله: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

الإنسان من طبيعته إذا وقع في شدة وضيق عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتجه إلى الله ونسى ما كان يدعو من قبل وهنا يوقن أنه لا منقذ إلا الله، وتنكشف عنه الحجب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة وينطرح بين يدي الله منكسراً متواضعاً مبتهلاً متضرعاً باكياً، ويجأر إلى الله كاشف السوء مجيب المضطرين غياث المغيثرين منقذ الهالكين، وجابر المنكسرين ومنقذ الغرقى، وسامع النجوى، فكم من ملحد نزلت به ضائقة آب إلى الله⁽²⁾، وكم من شارد فاسق وقع في مأزق تاب إلى الله ورجع إلى طاعته، فالفطرة خير شاهد وأقوى دليل وأنصح برهان، وأوضح حجة لأنها لا تحتاج إلى تركيب مقدمة وإقامة أدلة جدلية واستنتاج ودليلها لا يمكن مقاومته، ولا دفعه بالشبهات والوساوس، ألا ترى الإنسان إذا ما وقع في معصية يتجه مباشرة إلى السماء ويرفع يديه قائلاً: يا رب يا رب وهذه الحالة تهجم عليه وتسيطر على تفكيره وشعوره وتجعله يشعر أنه لا منقذ

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 359).

(2) العقيدة في الله لعمر الأشقر، ص: 67، الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 368).

ولا منجي ولا مغيث إلا الله ﷻ، فلو لم تدل الفطرة على تأثير الدعاء لما اتجهت إلى الدعاء ولكانت تلجأ إلى وسائل أخرى للاستغاثة والاستعانة⁽¹⁾.

وقد ذكر الله ﷻ طبيعة الإنسان هذه في عدة آيات منها:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾ [يونس: 12].

- وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدًا لِّفَضْلِ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: 8].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَا كُنْتُمْ الضُّرُّ فَلِإِيَّاهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: 53].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَوَّيَتْ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَقَالُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَجَبْتَنَا مِنْ هُدَاهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22].

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية (1/ 368).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝﴾ [الإسراء: 67].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا جَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝﴾ [لقمان: 32].

فالإنسان في مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التي كان يتعلق بها ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفة قوية من أقوى ما يكون المعارف، فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرابية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال⁽¹⁾.

3 دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثر من أن تحصر فقد تواتر عنه ﷺ أمران: فعله للدعاء والثاني: حثه ﷺ وترغيبه في الدعاء⁽²⁾، ومن الأدلة ما يلي:

أ- حديث أنس بن مالك: قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكراع وهلك الشاء. وفي رواية: وجاع العيال، وفي رواية أخرى: هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يسقينا فمد يديه ودعا، وفي رواية وما

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 369).

(2) المصدر نفسه (1/ 366).

نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة، ثم جاء ذلك الرجل أو غيره في الجمعة المقبلة فقال: تهدمت البيوت وانقطعت السبل فأدع الله يمسكها، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت⁽¹⁾.

ب - حديث النزول: وهو حديث مشهور متواتر، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»⁽²⁾

إن المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلة وأصدقها برهاناً وأقواها حجة، فنحن رأينا وشاهدنا في أنفسنا ومن حولنا تأثير الدعاء، فمن منا لا يقع في شدة وكرب وضيق ثم يستغيث بربه فلا يرى أثر ذلك؟ فنحن نشاهد في حياتنا وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا يحصل فيها إجابة الدعاء بعد يأس وقنوط من المخلوقات، وبعد انقطاع السبل والحيل فهذا يكفي وحده للدلالة. والحق الذي لا مرية فيه أن الدعاء سبب من الأسباب وأن له تأثيراً في جلب المنافع ودفع المضار، كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، وأنه لا منافاة بين القدر والدعاء، فالدعاء من جملة ما سبق به القدر وتضمنه

(1) البخاري رقم 932، مسلم رقم 897.

(2) فتح الباري على صحيح البخاري (3/ 29)، رقم 1145، مسلم رقم 758.

القدر السابق⁽¹⁾.

ولاشك أن الله ﷻ هو الذي حرك العبد إلى الدعاء ويسره له وهو الذي قذف في قلب العبد الحركة إلى الدعاء وألهمه التضرع والابتهاال والانطراح بين يديه، ووفقه لذلك وصرف عنه الموانع من استكبار وكسل وغير ذلك، فهذا الخير منه ولولا الله لما دعا العبد.

وقد قال عمر بن الخطاب ؓ: إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه⁽²⁾.

فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعاءه سبباً للخير الذي قضاه له⁽³⁾.

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 374).

(2) المصدر نفسه (1 / 375).

(3) المصدر نفسه (1 / 375).

المبحث السابع

العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

من أسماء الله الحسنی «العدل» ولم يأت هذا الاسم في القرآن الكريم وقد جاء في حديث الأسماء الحسنی وأجمعت عليه الأمة ومعناه:

العاذل: وهو الذي يصدر منه فعل العدل وهو المضاد للجور والظلم، وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم وإذا آمن العبد بأن الله هو العدل لم يعترض عليه في أحكامه وتدبيره وسائر أفعاله، وافق مراد العبد أو لم يوافق، لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي⁽¹⁾.

فالعدل كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول وهذا عدله ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يُعينه ويُوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلّى بينه وبين نفسه، ولم يُرد

(1) أسماء الله الحسنی د. فاروق حمادة، ص: 128.

سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله⁽¹⁾.

وقد اتفق أهل الأرض والسموات على أن الله تعالى «عدل» لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرون له بالعدل، ومُنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: 11].

وقال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْيَمِينِ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم مَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَرُسُدُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَخِيْرَةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

فهو سبحانه . قد حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يهلك: ﴿الْقُرَى يُظْلِمُونَ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [الأنعام: 131].

فأفعال الله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة، وما ينزل الله . سبحانه . بالعصاة والمكذابين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنوب ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهاهم إلا عما مضرت خالصة أو

(1) جهود الإمام ابن القيم في توحيد أسماء الأسماء والصفات د. وليد محمد عبد الله العلي (2/ 1291).

راجحة وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم لا جور فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ (٤٧) [الأنبياء: 47]، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وحكمه⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «عدل في قضاؤك»⁽²⁾. فالله عدل في جميع أقضيته في عبده، قضائه السابق فيه قبل إيجاده، وقضائه فيه المقارن لحياته، وقضائه فيه بعد مماته، وقضائه فيه يوم معاده⁽³⁾.

وقال الله . على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56].

فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم⁽⁴⁾.

فالله يأمر بالعدل ويفعله وهو أعدل العادلين، فما قضى في عبده قضاء إلا هو واقع في محله الذي لا يليق به غيره، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد⁽⁵⁾.

فالله وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل، فالشرع والقدر

(1) الجزاء من جنس العمل د. سيد حسين الغفاني (1/ 33).

(2) صحيح ابن حبان رقم 972.

(3) الجزاء من جنس العمل (1/ 33).

(4) جهود الإمام ابن القيم الجوزية في تقرير الأسماء والصفات (2/ 1292).

(5) الجزاء من جنس العمل (1/ 34).

والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿وَوَعَدْتُكَ بِرَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ [الأنعام: 115].

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها، وإنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وإنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء وإن كان هو الذي جعله مستحقاً⁽¹⁾.

والله يفعل ما يريد، وحكمه ماض في العبيد، على النهج السديد⁽²⁾.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]. وهذا الكمال عدل فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44].

- وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَلْبِيسٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 100-102].

(1) مدارج السالكين (3/ 457-460).

(2) الجزء من جنس العمل (1/ 34).

(3) المصدر نفسه (1/ 34).

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦١) ﴿هود: 102﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَذَلِكَ أَفْكَرُهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِيَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٩١) ﴿الكهف: 59﴾.

- وقال تعالى في شأن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَذْنَا لِيَذِبَ الْيَوْمَ مِنَ السَّوَاءِ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا يَعَذَّبُ بِعَذَابٍ بِئْسَ كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿الأعراف: 165﴾.

- فالله لا يظلم الناس شيئاً وإنما يؤاخذهم بظلمهم، ولا يظلمهم في الآخرة⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥١) ﴿يس: 54﴾.

- وقال تعالى في آخر آية نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

وقال ﷺ، فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»⁽²⁾.

(1) الجزاء من جنس العمل (1 / 35).

(2) مسلم، ك البر والصلة رقم 2577.

وعلى مستوى المعاملات بين الناس جاء الأمر الإلهي بتحري العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: 90].

فالنصوص التي ذكرت في القرآن والسنة للدلالة على تحريم الظلم وتنزيه الله عنه، تقتضي كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعها⁽¹⁾.

قال الشاعر:

والعدل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم في الميزان
فعل الصراط المستقيم إلهنا قولاً وفعلًا ذاك في القرآن⁽²⁾
ومن أكبر مظاهر عدل الله في خلقه في الدنيا والآخرة سنة
الجزاء بجنس العمل وقد تكاثرت النصوص لهذا المعنى، وهذا شرع
الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل⁽³⁾.

أولاً: الأصل في العقاب المماثلة:

إن الوعيد والعقاب الإلهي مبني على العدل الإلهي، بحيث تكون العقوبة مكافئة للذنب الواقع ولذلك يصرح القرآن بقوله: ﴿وَيَحْزَنُوا سَيَتَوَّعُونَ سَيَتَوَّعُونَ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: 40].

- وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتِكُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود، ص: 287.

(2) الجزاء من جنس العمل (1/ 33).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 269.

- وقال تعالى: ﴿وَلَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126]، بل قد يتجاوز الله بمشيئته عمن أساء يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، ويحرض الله الناس على الصفح عمن ظلمهم أو أساء إليهم، فهو يسرع لهم القصاص والمعاملة بالمثل ولكنه في الوقت يدعو إلى العفو والصفح ويوكل أجر فاعلهما عليه سبحانه، زيادة في الإغراء وحشاً على التسامح، فيقول تعالى: ﴿وَحَزُوا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَلَجَّزْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40].

- وقال تعالى: ﴿وَلَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ﴾ [النحل: 126].

والحاصل أن عقاب الله العبد يكون على قدر ذنبه وما ارتكبه، ولذلك ألمحت بعض الآيات بأن جزاء العقوبة هو ما كان يقره العبد، قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 147].

وبلفظ الخطاب ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 16].

- وقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: 39].

وأما في جانب الوعد والثواب فيعامل الله عباده بالفضل والزيادة وإن كانت من جنس العمل الذي فعله العبد، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمّد: 17].

- وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 173].

والقرآن الكريم حافل بالتطبيقات المتنوعة على سنة الجزاء بجنس العمل، ولكن قبل الشروع في هذه النماذج نعرض للآيات القرآنية التي تعد حقائق أصيلة لهذه السنة، ومن الأمثلة على ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23].

فالمراد بالبغي هنا ما كان على النفس خاصة بإيرادها موارد التهلكة والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية، وقد يراد به . أيضاً . البغي على الناس، فالناس نفس واحدة، على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة والخطاب بـ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفيد العموم فيدخل فيه المخاطبون وغيرهم، وفي الآية ذم للبغي في أوجز لفظ، ومعنى ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وبال البغي عليكم ولا يجنى ثمرته إلا أنتم⁽¹⁾.

وقد دلت الآية على أن البغي يجازى صاحبه عليه في الدنيا والآخرة⁽²⁾، فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنزال أهله الرجوع إلى الله، وإنباؤه إياهم بما كانوا يعملونه وذلك في قوله تعالى في عجز الآية نفسها: ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد

(1) تفسير البحر المحيط (5 / 140)، السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 227.

(2) السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 227.

بالإنذار هنا لازمه وهو الجزاء، وأما الدنيا فالشاهد الذي ذكرناه ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ ويؤيده قول النبي ﷺ: «ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم»⁽¹⁾.

يقول محمد رشيد رضا: فوجود الأعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة، وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجز، فكيف إذا قدروا وفعلوا الغالب؟ وأما بغى الملوك والحكام على الأقوام والشعوب فأهون عقوبته عداوتهم والطعن عليهم، وقد تفضي إلى إغتيال أشخاصهم، أو إلى شل عروشهم والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرض، أو نوعاً من الكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي، تسلبها استقلالها وتستولي على بلادها⁽²⁾. وتلك هي عدالة الله في تحقيق قانونه في الخلق وجزائهم بجنس ما يعملون⁽³⁾.

2. قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾، أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، أي: وما يعود وبإل ذلك إلا عليهم وأنفسهم دون غيرهم⁽⁴⁾.

(1) أخرجه أحمد (5 / 38) صحيح.

(2) تفسير المنار (11 / 344).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 228.

(4) الجزاء من جنس العمل (1 / 84).

فمن سنن الله ونواميسه في خلقه ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا
بِأَهْلِهِ﴾.

ولهذا قيل: وما ظالم إلا سيلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد⁽¹⁾
فما يصيب مكرهم السيئ أحداً إلا أنفسهم وهو يحيط بهم
ويحيق ويحيط أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينتظرون إذن؟

إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم،
وهو معروف لهم وتمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد⁽²⁾
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

3. قال تعالى: ﴿مَنْ لَّكَ لَئِمَّا يَنْكَرُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:

[10].

ما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابع
من فضل الله والله هو الغني عن العالمين، وبالمقابل فإن العبد هو
الخاسر حتى ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه
على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء والأوفياء⁽³⁾.

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى

(1) التحرير والتنوير (22 / 235).

(2) في ظلال القرآن (5 / 2949).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 228.

ينزل به: من مكر أو بغى أو نكت، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾⁽¹⁾.

ثانياً، الجزاء بجنس العمل في الدنيا:

1. الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا:

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَٰئِطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا مَعَنَا مُنْتَهٰزُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: 14-15].

- قال تعالى: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67].

- وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ ۚ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: 79].

هذا من باب المقابلة على سوء ضيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من يسخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل⁽²⁾.

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 229..

(2) المصدر نفسه، ص: 229.

2. تسليط الظالم على مثله :

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

وفال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أُولَٰئِكَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْأَمْرِ بِكَرِهٍ وَإِن تَتَّبِعْتَهُمْ يَتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا مِّنَ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَالْعَرَبِيِّ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٥-١٧٩].

وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِمَعْصَى الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: 129]: تدل الآية على أن الرعية متى كانوا ظالمين فلله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم⁽¹⁾.

3. استئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا لِابْنِطِلٍ يُدْخِلُوهَا فِي الْخَلْقِ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾ [غافر: 5] .

وقال تعالى عن ظلم فرعون لبني إسرائيل ومحاولته إخراجهم من أرضهم: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَبِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۖ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

(1) السنن الإلهية د. مجدى عاشور، ص: 234.

جَنَّا بِكُمْ لَيْفًا ﴿١٤﴾ [الإسراء : 103 . 104] .

ويقرر القرآن الكريم هذه السنة في آيات أخر قال تعالى :
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي بِلَدِنَا
فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ
لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَغْنَوْا وَغَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٤﴾

[إبراهيم : 13-14] .

وقال تعالى : ﴿لَنْ تَرِيَهُ الْفُتُورَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا فِيلًا
﴿١٥﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقِيلُوا تُقْبِلُوا قَبِيلًا ﴿١٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٧﴾ [الأحزاب : 60-62] .

4 . نصر الله منوط بنصرته للدين والحق :

قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة : 21] .
وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر : 51] .
وقال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرؤم : 47] .

وهذا النصر الإلهي مشروط بالإيمان ونصرة دين الله ، وفي ذلك
يقول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ
﴿٧﴾﴾ [محمّد : 7] ، وقال تعالى : ﴿وَلَنَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج :
40] .

5 . سلب النعمة عن منعها مستحقها :

يبين القرآن الكريم أن عقاب الله بالمرصاد لمن منع أحداً شيئاً

يستحقه وأن سنة الله في هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من نعمة ويسلبه ما كان سبباً في التجني على خلقه ويتركه في رماد، والشاهد على ذلك جلياً في قصة أصحاب الجنة التي قصها علينا القرآن للاعتبار والعظة، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْتَمُوا لِبَصِيرَتِهَا مَضِيجِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْتَكُونُونَ ﴿٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿١٠﴾ فَتَنَادُوا مَضِيجِينَ ﴿١١﴾ أَلَيْسَ لَكُم مَّعِيَ عَقَدُوا مَنَاقِبُكُمْ أَنِ اقْذُوبُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿١٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿١٤﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَصَالُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم، 17، 27].

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه الذي كفله الله له عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء ثم بين الله أن حكمه هذا سنة جارية في خلقه وقضاء عام لمن وقع في مثله ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات⁽¹⁾.

وبالمقابل فإن الله قد ضمن لمن تعدى بخيره على غيره أن يرزقه من جنس ما أنفقه ويزيده فيه سواء في الدنيا أو في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سَبَأ: 39].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن حَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 241.

تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: 272﴾ .

وفي الحديث القدسي: «أنفق أنفق عليك»⁽¹⁾.

6. تيسير الله لمن يسر على عباده:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا لِلَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَأَنشَرُوا بِرَفْعِ اللَّهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ﴾ [المجادلة: 11] .

وفي قوله ﴿يَتَسَّحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة، وأعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه أيسال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه⁽²⁾.

ويؤكد هذا الموضع من الشاهد قول النبي ﷺ: «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»⁽³⁾.

(1) مسلم (2 / 690).

(2) السنن الإلهية مجدي عاشور، ص: 243.

(3) صحيح مسلم (4 / 2074)، السنن الإلهية، ص: 244.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْجِعَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَأَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ﴾ [المجادلة: 11] أي: إذا قيل: ارتفعوا وإنما يراد بذلك وإذا قيل قوموا إلى قتال عدو أو صلاة أو عمل خير أو تفرقوا عن رسول الله فقوموا⁽¹⁾، فقد جعل جزاء امتثال أمره في تلك الآية أن رفع درجة أصحابها بالنصر وحسن الذكر في الدنيا وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة، خاصة العلماء منهم الذين جمعوا بين العلم والعمل فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة⁽²⁾.

7 - الجزء بجنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أي تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ في اتقانه ونسجه فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الغاية القصوى في استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثم الامتثال بالعبودية.

ومن الآيات الدالة على هذه المسألة:

- قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٦] وَأَكِيدُ كَيْدًا [١٧]. [الطاريق: 15، 16].

(1) جامع البيان للطبري (28 / 259).

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (2 / 221).

في الحياة الدنيا، فهي كذلك في الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن، والتطبيقات القرآنية تترى في هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك⁽¹⁾.

1. معاملة أهل الفضل بالفضل:

- قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (١٦) ﴿الرَّحْمَنُ: 60﴾ ، أي: هل ثواب خوف مقام الله ﷻ لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (١٦) ﴿الرَّحْمَنُ: 46﴾ ، إلى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٥٨) ﴿الرَّحْمَنُ: 58﴾⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) ﴿السَّجْدَةُ: 16 - 17﴾.

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم وأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر⁽³⁾.

وفي الحديث القدسي: قال تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 250.

(2) جامع البيان للطبري (27 / 198).

(3) تفسير القرآن الكريم (3 / 260) روح المعاني (21 / 132).

ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكَ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمُوا أَن تَصِفَ حَقًّا وَلَا تُخَيَّبُونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التور: 22].

- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنَ أَرْزَاقٍ يُزَالَمُونَ وَأُولَٰئِكَ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14].

2- ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه:

قال تعالى: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ ﴿طه: 124 - 126﴾.

أخبر تعالى أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً، فإن الجزاء أبداً من جنس العمل⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

(1) مسلم في صحيحه (4 / 2174).

(2) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 256.

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهَا كَمَا نَسُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ هَذَا ﴿٥١﴾ [الأعراف: 51].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِبِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نُسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا وَمَا وَتَكُ الْأَنْشَارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ [الجاثية: 32-34].

3 - التهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهاكمون بالمؤمنين في الدنيا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ خَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَذْيَافِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [المطففين: 29، 36].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِن تَوَكُّمِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّمْ يَأْتِ بِأُتَىٰ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَلُّهُم مِّن فَيْكِهِ الْعَذَابِ ﴿١٣﴾ [الحديد: 13].

والشاهد في الآية قوله: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فالظاهر من إسناد قيل بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة الساتقين للمنافقين⁽¹⁾.

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 262.

وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكماً، إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم⁽¹⁾، ومما يؤيد أن هذا التخبط والحيرة الشديدة التي أصابت المنافقين في الآخرة هو جزاء لهم من جنس ما كانوا عليه في الدنيا، أنهم كانوا كذلك في الدنيا في قلق دائم وحيرة مستمرة، وتخبط متواصل لأنهم كانوا ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143]⁽²⁾.

رابعاً، الجزاء بجنس العمل بين العباد:

إن سنة الله في خلقه أن يكون جزاؤهم بجنس ما عملوه، وهذا أمر تكويني أقام الله عليه الدنيا والآخرة ليكون قانوناً حاكماً في المجازاة والمحاسبة وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله ﷻ أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمراً شرعياً تكليفاً، وقد أمر الله الناس بالتعامل به فيما بينهم، ليتحقق العدل والأمان في المجتمع بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التي توجب العمل بهذه القاعدة، وجعلها مستمرة في أبواب الشرع عامة في مسائله، وبين النبي ﷺ تلك السنة بأحسن بيان وأدق تطبيق، وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة، وتلك القاعدة والتي هي من حكمة الله البالغة في خلقه⁽³⁾.

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 263.

(2) المصدر نفسه، ص: 263.

(3) المصدر نفسه.

قال تعالى: ﴿وَحَزُوا سِنْتَهُ سِنْتَهُ يَنْتَهُ﴾ [الشورى: 40] ، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] .

ومن الأمثلة في القرآن الكريم في هذا الباب ما يلي:

1 . الآيات التي وردت في القصاص:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْمُرُ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبَاغُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِكُمْ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة : 178 . 179] .

وفي هذا المعنى أيضاً يأتي قوله تعالى عن حكم القصاص في الكتب السماوية السابقة:

قال تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45] .

وقد بينت السنة المطهرة تطبيق حد القصاص على الوجه الأكمل، وبما يحقق القاعدة التي تتحدث عنها، وبهذا يتبين لنا المصالح الجمة التي بنيت على مشروعية القصاص، وإقامته في المجتمع، ومن تلك المصالح زجر المعتدي ومن يحاول الاعتداء

ليرتدع قبل اقترافه عمله، ومنها جبر خاطر المعتدي عليه، ومنها التفادي من ترصد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، فإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح ويقوض بنيان المجتمع، ويشيع الفوضى في الدولة، وينخر في قواها المتمثلة في أفرادها وطوائفها⁽¹⁾.

2. حد الحراة والإفساد:

وبهذا المعنى أيضاً جاء حد الحراة والإفساد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: 33]، وهي شاهد لما نحن فيه على تفسير ابن عباس في رواية عطاء، وهو مذهب جمهور العلماء لأن كلمة ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للتخيير، بل هي للتقسيم أو بمعنى آخر: لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتل، ومن قتل وأخذ المال، قُتل وُصِّلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يديه ورجله من خلاف، ومن أخاف السبل ولم يأخذ المال نُفي من الأرض⁽²⁾.

3. من تطبيقات ذلك العصر النبوي:

ما علمنا إياه رسول الله ﷺ في كيفية مجازاة الناس بجنس أعمالهم والشاهد الصريح في ذلك ما قاله ﷺ عن أبي بكر ؓ: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً

(1) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور، ص: 266.

(2) التفسير الكبير للرازي (5 / 666)، السنن الإلهية، ص: 266.

يكافيه الله بها يوم القيامة⁽¹⁾، فأبو بكر رضي الله عنه بذل كل ما يملك . من مال ونفس وأهل وولد . لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عطاؤه بلا حدود، يستحق الجزاء من صاحب النعمة المطلقة، وولي كل منحة وجود، فرد النبي صلى الله عليه وسلم مكافأته لله تعالى، ليتفضل على أبي بكر بالإنعام والإكرام، وليكون الأصل في الجزاء أن يكون من جنس العمل⁽²⁾.

والمثال الثاني في عصر النبوة: أنه لما أسرت ابنة حاتم الطائي في أيدي المسلمين ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: كان أبي يفك العاني، يحمي الذمار، ويقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة . فقال صلى الله عليه وسلم: «خلوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق»⁽³⁾.

وفي رواية: فخلى سبيلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملني، وأعطاني نفقة حتى خرجت إلى أخي عدي بالشام⁽⁴⁾.

لقد عاملها الرسول صلى الله عليه وسلم بجنس ما كان أبوها يعامل الناس رغم كفر أبيها، ليدلنا ذلك، على أن هذه القاعدة عامة ما لم تحرم أصلاً شرعياً، أو تعارض دليلاً قطعياً⁽⁵⁾.

(1) سنن الترمذي (5 / 609) حسن غريب من هذا الوجه.

(2) السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص: 271.

(3) نوارد الأصول للحكيم الترمذي (2 / 314)، شعب الإيمان للبيهقي (6 / 24).

(4) السيرة النبوية (5 / 277) الطبقات الكبرى (1 / 322).

(5) السنن الإلهية، ص: 271.

المبحث الثامن

الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق وقدرة الله عز وجل

أولاً: الحكمة في افعال الله وشرعه،

1 . الله الحكيم الحكم الحاكم:

من أسماء ربنا جل وتعالى التي عرّف بها نفسه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى السنة رسله وأنبيائه ﴿الْحَكِيمُ﴾، وقد ورد هذا الاسم ﴿الْحَكِيمُ﴾ أربعاً وتسعين مرة في القرآن الكريم، كما في قوله ﷻ: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]، ﴿الْحَكِيمُ الْقَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18]، ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130] .

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114] .

فهذا دليل على أن اسمه أيضاً «الحكم»، وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجمع منها: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87]، ﴿وَأَنْتَ أَهْكُمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [مرد: 45]، و﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8] .

﴿الْحَكِيمُ﴾: هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها ويضعها في موضعها، كما قال سبحانه ﴿صُنِعَ اللَّهُ الْذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88]، و﴿الْحَكِيمُ﴾ هو الذي يضع الشيء في موضعه بقدره، فلا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص، مع ما له في ذلك من الحكم البالغة العظيمة التي لا يأتي عليها الوصف، ولا يدركها الروهم⁽¹⁾.

فالحكيم الذي لا يدخل تدبيره ولا شرعه خلل ولا زلل، وأفعاله وأقواله تقع في مواضعها بحكمة وعدل وسداد، فلا يفعل إلا الصواب ولا يقول إلا الحق⁽²⁾.

وأما ﴿الْحَكِيمُ﴾ فهو من له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شيء إلا بإذنه وهو المدبر والمتصرف ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

و﴿الْحَكِيمُ﴾ أيضاً من له التشريع والتحليل والتحرير، فالحكم ما شرع الله، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، فاجتمع في الاسم «القدر» و«الشرع» ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَنزُ﴾ [الأعراف: 54].

وحين يقول: ﴿أَنْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾ و﴿خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾، فإن ذلك تأكيد على عدله ورحمته ووضعه الأشياء في موضعها، فليس في قدره ظلم ولا تعسف، وليس في شرعه محاباة ولا تحيز، بل هو حفظ للحقوق، حقوق الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة، والبر

(1) مع الله، د. سلمان العودة، ص: 183.

(2) المصدر نفسه، ص: 185. 186.

والفاجر، والمسلم والكافر، والقوي والضعيف، وفي كل الأحوال حرباً وسلاماً، وعلى كل أحد دون استثناء، ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه وسنة نبيه ﷺ في دقيق أموره وجلّها على الصعيد الفردي والجماعي، والأسري، الخاص والعام، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام، وكل شيء من حكمه وحكمته: أنه عدل لا يظلم أحداً، ولا يحمل هذا وزر ذاك، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ولا يدع محسناً إلا أثابه على إحسانه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]⁽¹⁾.

2. المراد بالحكمة:

الغايات المحمودة المقصودة بفعل الله وشرعه، وهي مقدمة في العلم والإدارة، متأخرة في الوجود والحصول، أي أنها تترتب على الأحوال والأفعال وتحصل بعدها⁽²⁾.

والحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إلى الله يحبها ويرضاها، فهي صفة له تقوم به، لأن الله لا يوصف إلا بما قام به، وهي ليست مطلق الإرادة، وإلا لكان كل مريد حكيماً ولا قائل به.

ثانيهما: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة يفرحون ويلتذنون بها في المأمورات والمخلوقات والحكمة لا يحيط بها علماً إلا الله تعالى، وبعضها معلوم للخلق وبعضها مما يخفى عليهم.

(1) مع الله، د. سلمان العودة، ص: 187. 188.

(2) منهاج السنة (1 / 141) أعلام الموقعين (1 / 197 . 201).

والحكمة في أفعال الله تعالى نوعان⁽¹⁾ :

- حكمة مطلوبة لذاتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) [الذاريات: 56] .

- وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَفِي الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٧) [الطلاق: 12] .

فبين الله أن الحكمة من خلقه الجن والإنس ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وهذا أمر محبوب لله تعالى ومطلوب له، وكذلك بين أن من حكمة خلقه السماوات والأرض وتدبيره لهما علم العباد بقدرة الله وعلمه سبحانه.

- حكمة مطلوبة لغيرها وتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه ويوضحها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُتَكِبِينَ﴾ (٥١) [الأنعام: 53] ، فاللام في قوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾ دالة على الحكمة من قوله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض فكبراء القوم يأنفون ويستكبرون عن قبول الحق عند الله رؤيتهم ضعفاء قد أسلموا فيقولون عند ذلك: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فهذا القول بعض الحكمة المطلوبة بهذا الامتحان وهي وسيلة إلى مطلوب لنفسه فامتحان الله لهؤلاء يترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء وذلك

(1) شفاء العليل لابن القيم، ص: 322، مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه، د. خالد محمد نور عبد الله (1 / 453).

يوجب آثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله؛ وحكمته وعزته؛ وقهره وسلطانه؛ وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه عنده ومنعه من يستحق المنع؛ ولا يليق به غيره؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53]⁽¹⁾.

3. الحكمة الحاصلة من الشرائع:

وأما الحكمة الحاصلة من الشرائع فثلاثة أنواع:

- النوع الأول: حكمة حاصلة من الأمر بفعل مشتمل على مصلحة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالعدل والإحسان، والصدق، أو حاصلة من النهي عن فعل مشتمل على مفسدة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالظلم والكذب، فالعدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فسادهم، والشرع في أمره بالعدل ونهيه عن الظلم ولم يثبت للفعل صفة لم تكن ولكن لا يلزم من حصول القبح في الفعل بالعقل أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك.

- النوع الثاني: حكمة حاصلة من الأمر بفعل، أو النهي عن فعل بحسب اشتماله على المصلحة والمفسدة التي لا تعرف بخطاب الشرع، فيكون الفعل قد اكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع، كالتجرد في الإحرام والتطهر بالتراب، والسعي بين الصفاء والمروة، ورمي الجمار، ونحو ذلك.

- النوع الثالث: حكمة يكون منشؤها من الأمر لا من المأمور

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 452).

به، فيكون المراد من الأمر الابتلاء والامتحان ولا يكون المراد فعل المأمور به ومثاله: أمر الله إبراهيم . عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل . عليه السلام فأراد الله ابتلاء خليله إبراهيم بعد أن رزقه الولد حتى يكون قلبه كله لله، ولم يكن تحقق ذبح ولده مراداً لله، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْطَرَفَ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَابِضِينَ ﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَا الْجَمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَتَلَوْنِي أَن يَتَابِرَهُمَا ﴿١٠٨﴾ قَدْ صَدَّقَتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَلَوْنَا الْإِيمَانُ ﴿١١٠﴾ ﴾

[الصفات : 102 . 106] فلما تحقق ما أَرَادَهُ اللهُ نَسَخَ الأَمْرَ وهو لم يكن مريداً وقوع ذبح ابنه⁽¹⁾.

وزاد ابن القيم نوعاً رابعاً، وهو ما نشأت المصلحة فيه من الفعل المأمور به والأمر معاً ومثاله: الصوم والصلاة والحج وإقامة الحدود وأكثر الأحكام الشرعية، فإن مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معاً، فالفعل يتضمن مصلحة والأمر به يتضمن مصلحة أخرى، فالمصلحة فيها من وجهين⁽²⁾.

4. الأدلة الدالة على الحكمة:

والأدلة الدالة على الحكمة كثيرة جداً ذكرها العلماء والفقهاء في كتبهم، وقد حاول ابن القيم حصرها بأنواعها - بعد أن ذكر أن أحاد الأدلة كثيرة يصعب سردها كلها - وقد أوصلها إلى اثنتين وعشرين نوعاً ومن هذه الأدلة:

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 455).

(2) المصدر نفسه (1 / 455).

النوع الأول: وهو أعلاها، ما ورد فيه التصريح بلفظ الحكمة قال تعالى: ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً فَمَا تَتْنِ الْأُذُرُ ۝﴾ [القمر: 5] ، أي أن الله أرى الكافرين في آياته - وهي هنا انشقاق القمر - وأتاهم بأنباء زاجرة لهم عن غيهم وضلالهم، كل ذلك حكمة منه سبحانه لتقوم حجته على العاملين، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

النوع الثاني: ذكر ما هو من صرائح التعليل، وهو من أجل أو لأجل، قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝﴾ [المائدة: 32] ، فقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾ بمعنى: السبب في الحكم بشرعية القصاص على ابن آدم لأجل قتل ابن آدم أخاه، وكان ذلك حراسة الدنيا.

النوع الثالث: الإتيان بكى الصريحة في التعليل، كما قال تعالى: ﴿مَّا آفَاكُمُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الخشر: 7] .

فعلل سبحانه قسمته الفياء بين الأصناف التي ذكرها كي لا يتناولها الأغنياء دون الفقراء، وقال تعالى: ﴿مَّا آصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [الحديد: 22 - 23] .

أنا قدر المصائب والبلاء قبل أن يبرأ الأنفس والمصائب والأرض، ومصدر ذلك قدرته وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده ولا يفرحهم بما آتاهم إذا علموا أن المصيبة مقدرة كائنة ولا بد، وقد كتبت قبل خلقهم وذلك يهون عليهم ما أصابهم⁽¹⁾.

النوع الرابع: ذكر المفعول له، وهو علة للفعل المعلل به، قال الله تعالى: ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يٰنَبِيَّانَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرًى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، فقلوه: ﴿يٰنَبِيَّانَا﴾ - وما بعدها - الأحسن أن ينصب على أنه مفعول لأجله لدلالة قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، وفي الآيتين بيان لتلك، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الأنعام: 59] أي لأجل التخويف⁽²⁾.

النوع الخامس: التعليل بـ ﴿لَعَلَّ﴾ فهي في كلام الله تأتي للتعليل المجرد لا للترجي لاستحالة عليه، فإنه إنما يكون فيما تجهل عاقبته ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، وقوله: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾ [طه: 44].

فلعل في المواضع المتقدمة قد أخلصت للتعليل للسبب الذي

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 457).

(2) المصدر نفسه (1 / 457) شفاء العليل، ص: 326.

تقدم أولاً، والرجاء الذي فيها متعلق المخاطبين.

النوع السادس: تعليله ﷺ عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه، فمن الأول قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27].

بيّن سبحانه أنه لا يوسع الدنيا . لبعض . الناس سعة تضرهم في دينهم، وهو سبحانه ينزل من رزقه بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، فالمانع من بسط الرزق حصول البغي من الناس، ومن الثاني قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْعَلِيَّاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32] ، فوصف بعض الرزق بكونه طيباً مانع من الحكم بتحريمه .

النوع السابع: إنكار الله سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 115] ، وقوله: ﴿إِنحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36] .

والأنواع كثيرة والأصل أن يأتي التعليل بالحروف، وقد تدل عليه الأسماء والأفعال، والحق يقال أن السياق له أثر في الدلالة على العلية إن لم تكن الأدلة نصاً في العلية، فينظر فيما يحتمل التعليل وعدمه بحسب السياق⁽¹⁾.

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 459).

5 - الحكمة من خلق إبليس ووجود هذه الآثام والشرور في الكون:

في ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله، فمنها أن يكمل الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة الشيطان وحزبه ومخالفته ومراغمته وإغاظته وإغاظه أوليائه، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان، والإلجاء إليه سبحانه أن يعيدهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يمكن أن يحصل لهم بدون خلق الله.

- ومنها . أي من الحكم . خوف المقربين من المؤمنين من ذنوبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس، وكيف طرد من رحمة الله تعالى لذنبه؟ فكيف يأمن المقربون بعد ذلك؟ وكيف يأمن المؤمنون الصادقون بعد ذلك؟ إن كان قد طرد إبليس بذنب كيف يعجب بعد ذلك عالم بعلمه؟

فستظل هذه العبودية ملازمة للملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والمؤمنين الصادقين لخوفهم من رب العالمين، لأنه طرد إبليس من رحمته بذنب وقع فيه، فالملائكة المقربون إذا ما أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور قالوا: سبحانه ما عبدناك حق عبادتك مع أنهم لم يخالفوا الله في أمر، كما قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التخريم: 6] .

قال النبي ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تثنى ما فيها من موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»⁽¹⁾، فهذا

(1) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 1722.

جبريل رآه النبي ﷺ كالحلس البالي من شدة خوفه من الكبير المتعال، وهو أمين وحي السماء، وهكذا، فالملائكة المقربون لما رأوا وشاهدوا ما كان من إبليس ازدادوا خوفاً ووجلأً، فكيف تستخرج العبودية إلا بمثل هذا الإبتلاء والتمحيص؟

والأنبياء والمرسلون وهم أعرف الناس بالله إزدادوا خوفاً ووجلأً من رب العالمين، والمؤمنون الصادقون لا يغتر واحد منه بعلمه ولا بعمله، بل يظل دائماً على خوف ووجل، لأنه لا يأمن من مكر الله⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

ومنها: أي من حكم خلق الله لإبليس: أنه تبارك وتعالى جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر على طاعته وأصر على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر آدم ﷺ عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصي أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل إبليس عبرة لمن أصر وأقام على الذنب، وجعل آدم عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه فله في هذا من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة.

ومنها: أي من هذه الحكم أيضاً: أن الله تبارك وتعالى قد جعل إبليس محكماً يمتحن به خلقه، ليتبين به خبيثهم وطيبهم، والله ﷻ لا يتلى خلقه وعباده ليعلم الخبيث من الطيب، فالله علم الخبيث والطيب أولاً قبل أن يخلق الخبيث والطيبين، ولكنه أراد أن

(1) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان، ص: 154 شفاء العليل لابن القيم، ص: 511 إلى 520.

يميز الخبيث من الطيب من الناس في الدنيا ويمحص الصف، ويجازي العباد وفق أعمالهم لا بمقتضى علمه فيهم⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179].

- وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

- وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَوَىٰ نَعْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 214].

وقال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [١] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [٢] [العنكبوت: 2، 3].

- ومنها: أي من الحكم: أن يُظهر الله ﷻ كمال قدرته لخلقه، فالله ﷻ خلق جبريل وجعله رسولاً للأنبياء، فهو أمين وحي السماء الذي به حياة الأرواح، وخلق ميكائيل، وجعله على الأرزاق والأمطار التي بها حياة الأبدان، وخلق إسرافيل ووكله بالصور الذي ينفخ فيه بأمر الله، لتحيا الأبدان مرة أخرى، ففيه حياة الأبدان بعد أماته الله لها يوم القيامة، وخلق سائر الملائكة، وخلق إبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشينته وسلطانه، فإنه

(1) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان، ص: 158.

خالق الأضداد كالسما والارض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث، والضد إنما يظهر جنسه بضده، فلولا القبيح لم نعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم نعرف قدر الغنى، وخلق الله آدم من غير أب ومن غير أم، وخلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وخلق سائر البشر من أب وأم، لنعلم أن الله على كل شيء قدير، إن شاء أن يخلق بغير أب وبغير أم خلق، وإن شاء أن يخلق من أب وأم خلق، فالله ﷻ يخلق الأضداد ليظهر كمال قدرته ومشئته تبارك وتعالى.

- ومنها: أنه ﷻ يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن يحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله.

سبحانه من خلق الخلق بحكمته وعدله، فما من شيء في الكون صغر أو كبر علمناه أو جهلناه، رأيناه أم غاب عنا إلا وهو مخلوق لله بعدله وحكمه⁽¹⁾.

- ومنها: أن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا إلى غير ذلك من هذه المعاني هي أحب العبودية إلى الله ﷻ، وهذه العبودية لا تتحقق إلا بالجهد بكل ما تحمله الكلمة من معنى هو ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها

(1) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان، ص: 159.

وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله، لو لم يخلق الله ﷻ إبليس، فكيف تحقق مرتبة العبودية بجهاذك لنفسك ولهواك وللشيطان؟

ومنها أن من أسماء الله: الحكيم، والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، فاقترضت حكمته خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص⁽¹⁾.

ومنها: أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانتة، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعته وإكرامه، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه وملائكته ورسله وأوليائه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كماله عليه الحمد التام⁽²⁾، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعمة السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وضلت قدرته وما ذكرنا من هذه الحكم قطرة من بحر، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من تحيط بكمال الله وحكمته في خلقه لكل شيء⁽³⁾، فإن كان الله تبارك وتعالى قد خلق إبليس لهذه الحكم التي وقفنا على بعضها، فلا شك أن خلق الله لغير إبليس. وهو رأس الشر. لحكم كثيرة من باب أولى، فالله تبارك وتعالى لم يُطلع خلقه إلا على بعض الحكم⁽⁴⁾.

(1) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان، ص: 161.

(2) شفاء العليل، ص: 514، الإيمان بالقضاء والقدر، ص: 161.

(3) المصدر نفسه، ص: 239، المصدر نفسه، ص: 162.

(4) الإيمان بالقضاء والقدر، ص: 162.

ويكفي العاقل: أن يعلم أن الله ﷻ عليم وحكيم، بهرت الأبواب حكمته، ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه، وأن الله في قدره سرّاً مصوناً وعلماً مخزوناً احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته وإنما يصل أهل العلم به وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك، وقد لا يؤذن لهم في ذكرها، وربما كلموا الناس في ذلك على قدر عقولهم وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر، وأنه لو شاء أن يطاع لأطيع، وأنه مع ذلك يعصى فأخبرهم سبحانه أن هذا سره، وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق⁽¹⁾.

وعن عمران بن ميمون عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى وكلمه قال: اللّٰهُمَّ أنت رب عظيم ولو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، فأنتهى موسى⁽²⁾.

أ. ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء:

نقول في مثل هذه الأمور إننا قد تدرك حكمتها وقد لا تدرك فإن كثيراً من الأشياء لا نعلم حكمتها كما قال تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(1) كلام لابن تيمية نقله القرضاوي في الإيمان بالقدر، ص: 82.

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 82.

[الإسراء: 85] ، فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه، وما أشبه ذلك، ولو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها ولو سئلنا ما الحكمة في أن الله ﷻ جعل الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً وصلاة العشاء أربعاً وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك، وبهذا علمنا أن كثيراً من الأمور الكونية وكثيراً من الأمور الشرعية تخفي علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإننا نقول إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة إن من الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم تصل إليها فإن ذلك لا ينقصنا شيئاً، ثم نعود إلى جواب السؤال وهو ما الحكمة في أن الله ﷻ وكل بنا كراماً كاتبين يعلمون ما نفعل؟ فالحكمة من ذلك بيان أن الله ﷻ نظم الأشياء وقدرها وأحكمها إحكاماً متقناً حتى إنه ﷻ جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراماً كاتبين موكلين بهم يكتبون ما يفعلون مع أن ﷻ عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله ﷻ بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى وأن هذا الكون منظم أحسن نظام ومحكم أحسن إحكام والله عليم حكيم⁽¹⁾.

ب . الشر لا ينسب إلى الله :

الشر لا ينسب إلى الله ، قال ﷺ: «والشر ليس إليك»⁽²⁾ ، فلا

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (1 / 168).

(2) مسلم رقم 771.

ينسب الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكماً، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولذلك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار، فالمفعول شر ولكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محصناً، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر صار ذلك شراً بالنسبة له، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله، فيكون خيراً، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 66].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حملة ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله، وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليها، فهذا آدم - عليه الصلاة والسلام - لم يحصل له الإجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَّنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْبَيْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ﴿١٣١﴾ [طه: 122].

والثلاثة الذين خلفوا بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم حتى ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم، صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه.

ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حالهم أيضاً، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعينهم قال: ﴿وَعَلَّ الثَّانِيَةُ الذِّبْرُ خُلُقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] (1).

فهذه آيات عظيمة تتلى في محارب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة وهذا شيء عظيم، وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن هاهنا أمر يجب معرفته وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله ﷻ، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه فهو خير والدليل قول النبي ﷺ: «الخير بيدك والشر ليس إليك» (2).

ولم يقل والشر بيدك، فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي، ومع ذلك فهو وإن كان شراً في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضي على كونه شراً

(1) القول المفيد على كتاب التوحيد محمد، صالح العثيمين (3/ 178).

(2) صحيح مسلم رقم 771.

ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خير من وجهه، أو شر في محل خير في محل آخر ولنضرب لذلك مثلاً: الجذب والفقر هذا شر، لكنه خير باعتبار ما ينتج عنه، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: 41] والرجوع إلى الله ﷻ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً، فألم الفقر وألم الجذب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 174] وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ﷻ واشتغلوا بالمال فإذا أصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر، كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير في غير السارق فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق وفيه أيضاً حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده امتنع من السرقة فصار في ذلك حفظ لأموال الناس⁽¹⁾.

فإنه لا يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حكمة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء ما في خلقه لإبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة، فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً وباعتبار آخر شراً، فإنه خلق إبليس ليتلى به عباده فمنهم من يمقته ويحارب

(1) القول المفيد على كتاب التوحيد (3/ 179).

منهجه، ويعاديه ويعادي أوليائه، ويوالي الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته⁽¹⁾.

ثانياً: التحسين والتقبيح:

هذا الموضوع له علاقة بالموضوع السابق، فالبحث فيه ناتج عن البحث في تعليل أفعال الله هل يحكم عليها بحكم العقل أولاً⁽²⁾؟ إن إطلاق التحسين والتقبيح على كل فعل من جهة العقل وحده دون الشرع، أو نفى أي دور للعقل في تحسين الأفعال أو تقبيحها غير صحيح، والمذهب الصحيح في هذه المسألة أنه: ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

1 - أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم والظلم يشتمل على فساد، فهذا النوع هو حسن قبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك، لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك، وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح⁽³⁾، فإنهم قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث الله إليهم رسولا وهذا خلاف النص، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] .

(1) القدر للأشقر، ص: 71.

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 248.

(3) المصدر نفسه، ص: 255.

2. أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

3. أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن به العبد، هل يطيعه أم يعصيه، ولا يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُ وَسَخَّرْنَا لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 103] حصل المقصود ففداه بالذبح وكذلك حديث الأبرص والأقرع والأعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة، فلما أجاب الأعمى قال الملك: أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فرضي الله عنك وسخط على صاحبيك⁽¹⁾، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به، فهذه الأقسام الثلاثة هي الصواب⁽²⁾.

وهناك نقطة مهمة وهي: إن إدراك العقل لحسن الفعل أو قبحه أكثره مجمل، فالعقل لا يحيط بالوجوه والاعتبارات للأفعال كلها ولذلك كان الشرع وإرسال الرسل لا بد منه خاصة مع غلبة الهوى، ولكن هذا لا يمنع وجود قدر مشترك بين العقلاء في إدراك حسن بعض الأفعال أو قبحها⁽³⁾، وإذا تتبعنا نصوص الشرع لوجدنا الدلالة على أن هذا مركز في الفطرة ومن الأدلة على ذلك:

1. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلُوا فَقِحْصَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَاءً بَارِدًا وَكَأَنَّ مَاءَنَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28، 29].

(1) البخاري رقم 3464، فتح الباري (6/ 500).

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 436. 434).

(3) مفتاح دار السعادة نقلاً عن مسائل أصول الدين (1/ 382).

فالفاحشة هنا هي طواف المشركين عراة بالبيت رجالاً ونساء، فبين الله أنه لا يأمر به لقبحه، ثم بين الله أنه لا يأمر إلا بما هو حسن⁽¹⁾.

2 - وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْأَبْغَىٰ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الأعراف: 33]، ففي الآية علق الله التحريم ببعض الأفعال لفحشها.

3 - وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ﴾ [الإسراء: 32]، فالله ﷻ علل النهي عن قرب الزنا بكونه فاحشة⁽²⁾.

4 - وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، فوصف الله بعض رزقه بأنه طيب، وأن هذا الوصف يقتضي عدم تحريمه، فدل على ثبوت وصف للفعل هو منشأ للمصلحة مانع من التحريم، وهذا هو التحسين العقلي عينه⁽³⁾.

5 - لقد ضرب الله أمثلة عقلية كثيرة دالة على حسن التوحيد ومدح فاعله، وعلى قبح الشرك وذم فاعله، والأدلة فيه كثيرة، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ

(1) مدارج السالكين (1/ 249) لابن القيم.

(2) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1/ 483).

(3) مدارج السالكين لابن القيم (1/ 249).

كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ [الرؤم: 28] . ففي هذا المثل بيان من الله للمشركين أنهم إذا كانوا لا يرضون أن يكون مماليتهم شركاء لهم، فكيف ساء لهم أن يجعلوا المخلوقين شركاء للخالق فالخالق أولى بالتنزيه ونفي الشريك في العبادة⁽¹⁾، فلو كان الشرك قبيحاً لمجرد النهي عنه، لاكتفى بالنهي عنه فقط، ولم يذكر مثلاً يدل على قبحه في العقول والفطر⁽²⁾.

ومنه قول الله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرِّجْلُ يُضَيَّرْ وَلَا تَنْفَعُ عَنْهُمْ إِفْعٌ وَلَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [إِنِ: ٢٣ - ٢٤].

فلم يحتج الله عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل ومقتضى الفطرة، لأن من لا يملك دفع ضرر عن نفسه فأولى أن لا يقدر على دفعه عن غيره، فكانت عبادته من كان نافعاً ضللاً⁽³⁾.

إن مجرد معرفة حسن الأفعال وقبحها بالعقل قبل بعثة الرسول ﷺ لا يترتب عليه الثواب والعقاب، كما أننا نشيت حسن الأفعال وقبحها لذاتها ومعرفة العقل لذلك، كما أنه له مدخل في معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها، وأما الثواب على فعل الأفعال الحسنة فإنما هو من قبل الشارع والعقاب على فعل الأفعال القبيحة، إنما هو من قبل الشارع، فلا يجب شيء على المكلف قبل ورد

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1/ 484).

(2) المصدر نفسه (1/ 484).

(3) المصدر نفسه (1/ 484)، مفتاح دار السعادة (2/ 333).

الشرع، والثواب والعقاب متوقف على بعثة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

وتحقيق الحق في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة⁽¹⁾.

والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل إن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون العمل القبيح موجباً للعقاب مع قبحه في نفسه، والأوثان، والكذب، والزنا، والظلم، والفواحش كلها في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع⁽²⁾.

فإن لا يعذب عباده إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل عليهم فضلاً منه تعالى ورحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59].

وهذا من فضل الله ورحمته أن لا يعذب الناس إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل، قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الحجة إنما قامت بالرسول وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة، وهذا يدل على أنه تعالى لا يعذب الناس قبل مجيء الرسل إليهم، لأن الحجة حينئذ لم تقم

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم (2 / 7).

(2) مدارج السالكين (1 / 247).

عليهم، فالصواب إثبات الحسن والقبح عقلاً ونفي التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل، فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب، وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين⁽¹⁾.

ومن الآيات الدالة دلالة صريحة على معرفة العقل حسن الأفعال وقبحها وأنها في ذاتها حسنة وقبيحة قول الله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157] وذلك لأن المعروف الذي يأمرهم به تعالى هو ما تعرفه وتقر بحسنه العقول والفطر السليمة، وأن المنكر الذي ينهاهم عنه تعالى هو ما تنكره العقول والفطر السليمة وتقر بقبحه⁽²⁾، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، فهذه الآية تدل دلالة صريحة في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريره⁽³⁾.

إن الطيب إذا أحل من الشارع فقد اكتسب طيباً آخر إلى طيبه، فصار طيباً من الوجهين معاً، وكذلك القبيح إذا نهى الشارع عنه اكتسب قبحاً إلى قبحه، فصار قبيحاً من الوجهين معاً⁽⁴⁾، وذلك لأن حسن الأفعال وقبحها ثابتان لذاتها، ويكتشف ذلك بالعقل والشرع معاً⁽⁵⁾.

(1) مجموع الفتاوى (8 / 435) دار السعادة (2 / 39).

(2) منهج السلف والمتكلمين، جابر إدريس علي (1 / 142).

(3) المصدر نفسه (1 / 142).

(4) مدارج السالكين (1 / 249-250)، المصدر نفسه (1 / 143).

(5) منهج السلف والمتكلمين (1 / 143).

ثالثاً: فعل الأصلح، معنى الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق:

1. وجوب فعل الأصلح:

هذه المسألة متفرعة عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين، معتقدنا في هذه المسألة: إنه لا يجب فعل الأصلح على الله تعالى، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، فالله أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وأن فعل المأمور به مصلحة عامة لمن فعله، وأن إرسال الرسل مصلحة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس لمعصيته، ففعل المأمور به وترك المنهي عنه مصلحة لكل فاعل وتارك، وأما نفس الأمر وإرسال الرسل فمصلحة عامة للعباد، وإن تضمن شراً لبعضهم وهكذا سائر ما يقدره الله . تعالى . تغلب فيه المصلحة والرحمة والمنفعة، وإن كان في ضمن ذلك ضرر لبعض الناس، فلله في ذلك حكمة أخرى.. وإن كان في بعض ما يخلقه ما فيه ضرر لبعض الناس، أو هو سبب ضرر . كالذنوب . فلا بد في كل ذلك من حكمة ومصلحة لأجلها خلقها، وقد غلبت رحمته غضبه⁽¹⁾.

2 معنى الاستطاعة:

هذه المسألة من أهم المسائل في باب القدر، لأنها تتعلق بقدرة العبد واستطاعته التي جعلها الله مناط التكليف، ويتعلق بها أمران مهمان:

أحدهما: هل للعبد قدرة يفعل أو لا؟ والثاني: هل استطاعته

(1) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 259.

قبل الفعل فقط أو معه فقط، أو هي قبل الفعل وبعده؟ وتحدث العلماء في هذه المسألة بالتفصيل فقالوا:

أ - فهناك استطاعة للعبد بمعنى الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات، وهي التي تكون مناط الأمر والنهي، وهي المصححة للفعل، فهذه لا يجب أن تقارن الفعل، بل قد تكون قبله متقدمة عليه، وهذه الاستطاعة المتقدمة صالحة للضدين، ومثال هذه الاستطاعة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، فهذه الاستطاعة قبل الفعل، ولو لم تكن إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج، ولا عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجباً على أحد قبل الإحرام، بل قبل فراغه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿قَالُوا اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التأين: 16] فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط، إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة⁽¹⁾، وهذه الاستطاعة هي مناط الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي للغالبية في عرف الناس⁽²⁾.

ب - وهناك الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل، وهذه هي الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 20] .

وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٥) الَّذِينَ كَانَتْ

(1) القدر، ابن تيمية، ص: 372.

(2) القضاء والقدر، المحمود، ص: 269.

أَعْيَنَهُمْ فِي غَطَاوٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَأَنُورًا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ [الكهف: 100].
[101].

فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم، وصعوبته على نفوسهم فنفسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوا، وهذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزل واتباعها، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة له⁽¹⁾. وهذه الاستطاعة هي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل⁽²⁾.

وبذلك نثبت نوعي الاستطاعة، سواء التي هي مناط التكليف، وهذه تكون قبل الفعل، وبها يتعلق الشرع حيث لا يكلف غير المستطيع، والأخرى التي تكون مع الفعل، فهذه يتحقق الفعل بها وتكون بقدرة العبد وفعله، لكنها لا تقع إلا موافقه للقضاء والقدر⁽³⁾.

3. لا تكليف إلا بما يطاق:

لم يكلف الله تعالى الخلق إلا بما يطيقونه، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله﴾ نقول: لا حيلة لأحد وتحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله

(1) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (1/ 61).

(2) القضاء والقدر، ص: 270.

(3) المصدر نفسه، ص: 272.

تعالى، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]،
وقال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152] .

المبحث التاسع

سنة الله في الآجال وقدره الله وثمار الإيمان بالقدر

أولاً: سنة الله في الآجال،

إن الله ﷻ قَدَّرَ آجالَ الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [يونس: 49] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِتَنفِيسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145] .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لأجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، ولن يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعينك من عذاب النار، وعذاب القبر: كان خيراً وأفضل»⁽¹⁾.

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقَدَّرَ وقضى أن هذا

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية، عبد الآخر حماد الغنيمي، ص: 320.

يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بالحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب، والله خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة⁽¹⁾.

ولما قتل في غزوة أحد من المسلمين من قتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلونها بالسنتهم، ويلوون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين وإن إخوانهم الذين قتلوا، لو كانوا عندهم، ولم يخرجوا للقتال، ما ماتوا وما قتلوا فرد عليهم القرآن أبلغ الرد، مندداً بهم وبموقفهم، فقال: ﴿وَلَا يَفْقَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11].

والمعمر: من يعيش عمراً طويلاً في العادة، ومن ينقص من عمره: من يعيش عمراً قصيراً، قدره بعضهم بما قبل الستين، والضمير في ﴿عُمُرِهِ﴾ عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره.

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية، عبد الآخر حماد الغنيمي، ص: 320.

قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر أي: الطويل، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْمرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11] يقول: كل ذلك في كتاب عنده.

وبعضهم فسر ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ [فاطر: 11] بمعنى ذهب العمر قليلاً.

قليلًا: سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتابه⁽¹⁾.

ومنهم من فسر نقص العمر بقلّة البركة فيه، والزيادة في العمر بإلقاء البركة فيه⁽²⁾، فقد جاء في الحديث الشريف: «من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره⁽³⁾، فليصل رحمه»⁽⁴⁾.

فالآجال سواء كانت قصيرة أو طويلة مقدرة من أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس، فمن قدر له طول الأجل، قدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحي، وطيب الهواء النقي، وممارسة العمل البدني أو الرياضي والابتعاد عما يضر بالبدن تناوله، من المسكرات أو المخدرات، أو الأشياء

(1) تفسير ابن كثير (2 / 550).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 60.

(3) أي في أجله.

(4) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657.

الضارة كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات، فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدرة كمسبباتها، ومن قدر له قصر العمر، قدر له أن يبتلي بسوء التغذية، أو سوء التهوية أو الإصابة بعدوى أو تناول ما يضره ويؤذيه، أو يصيبه حادث في طريق، بأن يموت في كارثة عامة كالزلازل، أو يقتله قاتل عمداً أو خطأ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها، ولكنه مات في وقته المقدر له، وفي «أجله المسمى» عند الله، فلا انفصال في الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال⁽¹⁾.

وقد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب الله فما معنى قوله: ﴿يَمَحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثَنُ﴾ [الزعد: 39].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله ﷺ: «من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽²⁾.

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِن دُؤْيِكُمْ وَيُخْزِكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿[نوح: 3].

[4]

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 60.

(2) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657، والقضاء والقدر، عمر سليمان الأشقر، ص: 66.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه، ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما⁽¹⁾.

والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر⁽²⁾.

ثانياً، قدرة الله ﷻ:

القدر والقدرة والمقدار على الشيء: القدرة عليه، وقدرت الشيء: أقدره قدراً، من التقدير، وفي الحديث: «فإن غم عليكم فأقدروا له»⁽³⁾.

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 540)، القضاء والقدر عمر الأشقر، ص: 67.

(2) المصدر السابق (8/ 517)، القضاء والقدر عمر الأشقر، ص: 67.

(3) مع الله، سلمان العودة، ص: 233، البخاري رقم 1900.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] أي: ما عظموا الله حق تعظيمه⁽¹⁾.

والقدير: أبلغ في الوصف بالقدرة من ﴿الْقَادِرُ﴾ و﴿مُقَدِّرٌ﴾: من أقتدر وهو أبلغ.

وقد ورد اسم الله ﴿الْقَادِرُ﴾ سبحانه اثنتي عشرة مرة خمس منها بصيغة الجمع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ نَّوْفِكُمْ أَوْ مِن بَحْتِ آرْجِلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُرِيَنَّ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْ حَتَّىٰ تَصْرِفُوا أَلْبَابَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: 65].

- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُريك مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: 95].

- وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: 81].

- وقال تعالى: ﴿نَقْدِرُنَا فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المُرسلات: 23].

وورد اسم الله ﴿الْقَدِيرُ﴾ سبحانه خمساً وأربعين مرة منها قوله تعالى: ﴿إِنِّ مَا تَكُونُوا بِأَيْ يَكُمُ اللَّهُ جَبِيحًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148].

- وقال تعالى: ﴿إِنْ يُبَدُوا خَبَرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعَفَّوْهُ عَنْ سُوءِ فَلَانٍ

(1) مع الله، سلمان العودة، ص: 233.

اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ [النساء: 149] .

- وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 40] .

- وقال تعالى: ﴿وَلَنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] .

وورد اسم المقتدر في قوله سبحانه : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45] .

- وقال تعالى: ﴿فَلَاخِذْنُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ [القمر: 42] .

- وقال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] .

والله هو القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب، بخلاف خلقه، فهو سبحانه لا يتطرق إلى العجز ولا يعترضه فتور.

و﴿الْقَادِرُ﴾ سبحانه هو من يتيسر له ما يريد على ما يريد لظهور أفعاله، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20] ، فوصف نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه محيط بهم، ﴿الْقَدِيرُ﴾ هو ﴿الْقَادِرُ﴾، كما أن ﴿الْعَلِيمُ﴾ هو الـ﴿عَلِيمُ﴾ ﴿الْقَدِيرُ﴾ سبحانه كامل القدرة، فبقدرته أوجد الموجودات وبقدرته دبّرها وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت ويبعث العباد

للجزاء وبقدرته يقلب القلوب على ما يشاء ويريد⁽¹⁾.

قال الشاعر:

وهو القدير وليس يُعجزه إذا ما رام شيئاً قط ذو سلطان⁽²⁾

ثالثاً: ثمار الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر . كما جاء في القرآن والسنة . وكما فهمه سلف الأمة ثمار مباركة وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، في وجدانه وإرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كل ذي لب، ويلمسها كل ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام وفي السلم والحرب، وفي اليسر والعسر والرخاء والشدة، والنعاء والبأساء⁽³⁾، ومن أهم هذه الثمار والآثار:

1. الإقدام على عظام الأمور:

الإيمان بالقدر في حياة المؤمن أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظام الأمور بثبات وعزم وثقة، ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم، والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها . في قصرها . في التاريخ، وهي التي أقامت هذا البناء

(1) مع الله، سلمان العودة، ص: 235.

(2) المصدر نفسه، ص: 234.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 88.

الشاهق في كل ميدان من ميادين الحياة، نعم، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال في الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نشر الدعوة⁽¹⁾، فقد كانوا لا يخافون الموت، لأنهم يوقنون بأن الآجال محددة لا تتأخر ولا تتقدم لحظة واحدة، ولما كانت هذه العقيدة راسخة في قلوب المؤمنين ثبتوا في القتال وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم⁽²⁾، ومهما كان عددهم، لقد أيقنوا بقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51] .

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعداً في بيته أو في ميدان القتال، ففيم الجبن وفيم الفرار من القتال خوفاً من الموت؟ فهل القتال هو الذي يقتل؟ أم قدر الله للإنسان ما أن يموت في لحظة معينة في حالة معينة هو الذي يميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

هكذا كان الأمر في حشهم فأقبلوا على الجهاد في ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدرة الله سبحانه، ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذي نزل عليهم في سورة آل عمران بشأن غزوة أحد، حين قال المنافقون: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل

(1) ركائز الإيمان محمد قطب، ص: 426.

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص: 454.

عمران: 154] فرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]
 وحين قالوا : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾ [آل
 عمران: 154] فرد عليهم : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
 عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154] وحين قال الله
 للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا
 لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ
 خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾
 [آل عمران: 156 . 158]. وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كتب عليه
 الموت ولو كان في مضجعه في بيته، وأنه إن لم يكن كتب عليه
 الموت في تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء
 وسيوفهم لن تصيبه بالموت، وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان
 في القتال ويموت - بقدر من الله - فأمامه المشوبة والأجر وهو
 الكاسب بهذا القدر الذي قدره له الله، لذلك كان القتال في سبيل الله
 أمراً محبباً إلى نفوسهم، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم⁽¹⁾، كما
 وعد سبحانه : ﴿إِنْ تَصْرَعُوا إِلَى اللَّهِ يَصْرَعَكُمْ وَيُنْثِي أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] .

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافظهم
 للانسياح في الأرض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو
 اكتشاف المجهول من الأرض، فكان لهم في كل ميدان نشاط
 ملحوظ وآثار مشهودة، ففي نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من

(1) ركائز الإيمان محمد قطب، ص: 427.

المحيط غرباً إلى الهند شرقاً في فترة من الزمن لا تتجاوز قرن وهي سرعة لا مثيل لها في التاريخ، وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله.

وانتشر معه كذلك اللسان العربي بسرعة تفوق الوصف في انتشار اللغات في الأرض وفي ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامي حتى صار المسلمون أغنى أمة في الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً فيأتي إليهم المال من كل سبيل وتتاح معه فرصة العمران والحضارة، وفي ميدان الكشف الجغرافي كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة . أول من ارتادها . ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التي مكنت «فاسكوا داجاما» و«ماجلان» فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التي جاء المكتشفون الأوربيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون، وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيماني العميق⁽¹⁾.

2. القضاء على الكسل والتواكل :

إن جموع المسلمين قد انحرفت في العصور الأخيرة في عقيدة القدر بشأن ما يجري في الحياة الدنيا، لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات، وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود، لقد فهم . بعض الناس . من معنى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يريد الله، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل، فإن قدر الله ماض

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 248.

سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فلا ضرورة للكدر في طلب الرزق لأن: مالك سوف يأتيك، ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها في زعمهم ضد التوكل الصحيح، كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية، لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغي مقاومته إنما ينبغي الاستسلام له! وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق، وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول ﷺ وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين⁽¹⁾؟

والفهم الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذي يلغي مسؤولية الإنسان عن عمله؟

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم عند الله، ولكنه كان في ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول ﷺ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ بِثُلُثِهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيُذِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران: 165، 166].

فقد وعى المسلمون من الدرس أن كون الهزيمة تمت بقدر الله لا ينافي أنها في ذات الوقت ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أن وقوع شيء بقدر الله لا ينفي مسؤولية الإنسان عن خطئه، فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول: إنما وقع الخطأ مني بقدر من الله، ولقد قدر الله ألا

(1) ركانر الإيمان، محمد قطب، ص: 430.

أخطئ لما أخطأت فلست مسؤولاً عن الخطأ، كلا: إن الإيمان بالقدر لا يتنافى فيه أن يكون الحدث مقدراً من عند الله، وأن يكون الإنسان مسؤولاً عن عمله في ذات الوقت، كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درساً آخر.

إن عليهم أن يسلموا لقدر الله، ولكن ما معنى التسليم؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله؟

إنما قال لهم: ﴿فَأَنْبِئْكُمْ عَمَّا يُفْعَلُ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153].

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها، وهو الأمر الذي لا يريده الله لهم، فوجههم إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتفتت عزميتهم، ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره⁽¹⁾.

إن أحداث المعركة سارت في خط مختلف تماماً، فقد جمع الله الرسول ﷺ مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة. وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ١٧٨ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالرَّسُولُ فِيهِمْ فَأَحْزَنُوا النَّاسَ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا ضَلُّوا سَبِيلًا لَأُتُوا بِبُيُوتِهِمْ كَمَا أُتُوا بِبُيُوتِهِمْ لَكِنَّا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ وَلَوْلَا إِسْرَافُ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ١٧٩﴾ [آل عمران: 177-179].

(1) ركانز الإيمان، محمد قطب، ص: 431.

فَضِّلْ عَظِيمٍ ﴿[آل عمران: 172-174].

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة، ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماماً، استعدوا له بأرواحهم ومشاعرهم، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكئين على الله، وهذا هو التوكل الحق الذي يطلبه الله من المسلمين.

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغي للمسلم، نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله. وإن كان لا ينفي مسؤولية الإنسان. ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً، بل في اللحظة القادمة، هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع؟ أليس في الاحتمال أن الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذي كان في اللحظة الماضية؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره⁽¹⁾؟

إن الفهم الصحيح للإيمان بالقدر، لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله، ولا يدعو إلى القعود عن تغيير الواقع، يدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله وذلك هو الفهم الذي ينبغي أن يعود المسلمون إليه، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم، وهوائهم على أنفسهم وعلى الناس⁽²⁾.

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب، ص: 432.

(2) المصدر نفسه، ص: 433.

3 الثبات في مواجهة الطغيان:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أنه يهب صاحبه ثباتاً ورسوخاً في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعوناً متألهاً ولا طاغوتاً متجبراً، وذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم وهما:

العمر والرزق، والعمر محتوم والرزق مقسوم، ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين، ولم يعأوا بجبروتهم ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم، وفي عصرنا رأينا العلماء والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين وأذئاب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله⁽¹⁾.

فالإيمان بالقدر من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً وهو الذي كان يفتحهم الأخطار والأهوال⁽²⁾، فهذا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأدرك ذلك بكى وقال: ما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ، وأنا انتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد، لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي.

(2) القضاء والقدر، عمر الاشقر، ص: 112.

برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي⁽¹⁾، وقد تصدى خالد لطفيان الفرس والروم معاً.

4 - الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع والفرع، ولا يستبد به السخط والهلع، بل يستقبل مصائب الدهر بثبات، كشبات الجبال فقد استقر في أعماقه قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 22 . 23]⁽²⁾.

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد والمصائب والبلايا، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر⁽³⁾، وكان رسول الله ﷺ يغرس في نفوس أفراد الأمة الإسلامية هذا الإيمان ويرشدهم ويعلمهم كيف يتعاملوا مع المصائب والشدائد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيّاً لها أو ابناً لها في الموت، فقال الرسول: «أرجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى»⁽⁴⁾.

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي (1/ 382)، عمر بن الخطاب للصّلاّبي، ص: 351.

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 91.

(3) الإيمان بالقدر محمد حسان، ص: 250.

(4) البخاري رقم 6228، مسلم 923.

ففي قوله ﷺ: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى»: معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى وتقديره أن هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه ودیعة، وقوله ﷺ: «وله ما أعطى» معناه أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه بل هو ﷺ يفعل ما يشاء، وقوله ﷺ: «وكل شيء عنده بأجل مسمى» معناه: أصبروا ولا تجزعوا فإن كل من يأت قد انقضى أجله المسمى فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فأصبروا واحتسبوا ما نزل بكم والله أعلم، وهذا الحديث من قواعد الإسلام المشتملة على جمل من أصول الدين وفروعه والآداب⁽¹⁾، والمراد بأصول الدين هنا الإيمان بالقضاء والقدر⁽²⁾.

ومن الأذكار التي علمها رسول الله ﷺ للأمة قوله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»⁽³⁾.

وفي الحديث استحباب هذا الذكر عقب الصلوات، لما اشتمل عليه من ألفاظ التوحيد ونسبة الأفعال إلى الله والمنع والإعطاء وتمام القدرة⁽⁴⁾.

والمسلم يرضى ويسلم ويسلي نفسه بالصبر الجميل عند نزول

(1) شرح صحيح مسلم للنووي (6/ 224-225).

(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2/ 816).

(3) مسلم رقم 593، البخاري رقم 844.

(4) فتح الباري (2/ 332-333).

المصائب، قال ﷺ: ﴿وَيُشِيرُ الصَّادِقُ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157].

وتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ هذا الدعاء العظيم، عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً»، قال: فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»⁽¹⁾.

5 - الرضا والقناعة بما قسم الله :

ومن ثمار الإيمان بالقدر: رضا المؤمن بما قسم الله، وقناعته بما رزق الله، وهذا يثمر ثمرات طيبة في نفسية المؤمن وحياته.

أولها: عن القلب، فمن الناس من لو أوتي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أوتي ثانياً لتمنى ثالثاً، ومثله كجهنم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس الذي قال عنه الرسول

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 383)، رقم 199.

الكريم ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى عن النفس»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»⁽²⁾.

وقال الشاعر:

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عار المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعت فبعض شيء كاف
ولا يعرف هذا الغنى النفسي إلا من رضى بما قسمه الله، وقنع به.

والثاني: الإجمال في الطلب: فهو يسعى في رزقه، ويكدح في حياته، ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل مكدودي الأجسام، مشتتي القلوب، مهمومي النفوس، لا يشعرون بهدوء بال، ولا براحة نفس، ولا بإطمئنان فكر، فإن حصلوا على المزيد إزدادوا لهثاً وهماً، وإن أخفقوا امتلثوا نكداً وغماً⁽³⁾، وفي الحديث إن روح القدس نفث في روعي: «أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»⁽⁴⁾.

وثالثها: ألا يتطلع إلى ما ليس في وسعه وليس من شأنه

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم 624.

(2) صحيح الجامع الصغير رقم 100.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 93.

(4) صحيح الجامع الصغير رقم 2085.

ويرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض فقراء بطبيعته إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32] (1).

إن الإيمان بالقدر يبعث إلى القناعة وعزة النفس والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسمى فلاحه ورأس نجاحه قال الشاعر:

أفادتني القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة
تجز ربحاً وتغنى عن بخیل وتنعم في الجنان بصبر ساعة (2)
6. العز في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أن يطلب المؤمن حاجته عند من هي عنده بعزة نفس لا يطأطي رأسه ولا يذل نفسه ولا يدني ظهره

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 94.

(2) الوسطية في القرآن الكريم للصلاحي، ص: 343.

لمخلوق، إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن فلا ينبغي له أن يفرط فيها، قال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] .

فلا يحل لمؤمن أن يذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة عنده، فقد علم النبي ﷺ ابن عمه . عبد الله بن عباس . هذه الكلمات العظيمة: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽¹⁾.

7. السكينة وراحة النفس وسكون القلب:

فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر⁽²⁾.

وهذا ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم

(1) سنن الترمذي رقم 2516 حسن صحيح.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص: 97.

يدخل جنة الآخرة⁽¹⁾، ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: ما يصنع أعدائي بي أنا جتتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة⁽²⁾.

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير . كالسرطان . مثلاً فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يمهّد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يعلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية وصدر رحب، وسكينة وهدوء، لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة⁽³⁾، فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله ويقضائه وقدره.

ومليحة شهدت لها ضررتها والفضل ما شهدت به الأعداء

(1) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي، ص: 34.

(2) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده ودعوته أحمد القطان، ص: 101.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر محمد إبراهيم الحمد، ص: 32.

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك . الكاتب المشهور «ر. ن. سي. بودلي» مؤلف كتابي «رياح على الصحراء» و«الرسول» وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه «دبل كارينجي» في كتابه «دع القلق وأبدأ الحياة» في مقالة بعنوان «عشت في جنة الله» يقول بودلي: في عام 1918م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية، الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرثدي زيهم وأكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألقت كتاباً عن محمد ﷺ وعنوانه «الرسول»، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والإطمئنان والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم . بوصفهم مسلمين . يؤمنون بالقضاء والقدر، ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً على أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون وأن الفرد منهم لئن يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلا⁽¹⁾. ثم أردف قائلاً: ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه، هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي «الرون» في فرنسا وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة

(1) الوسطية في القرآن الكريم للصلاحي، ص: 344.

«قضاء مكتوب»، لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبّحو صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد⁽¹⁾.

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضر إطار احتياطي، وتولاني الغضب وانتابني القلق والهم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر نائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوءهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام⁽²⁾.

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: قد اقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرض النفوس، والسكرين الذي يحفل بهم أمريكا، وأوروبا - ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً

(1) دع القلق وأبدأ الحياة، ديل كارنيجي، ص: 290، 291.

(2) المصدر نفسه، ص: 290، 291.

لها، إنني لما أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا⁽¹⁾.

وأخيراً ختم كلامه بقوله: وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء . ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتنال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير⁽²⁾.

8. المؤمن لا يعيش بين «لو» و«ليت»:

إن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها، هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل شهوراً وأعواماً آلامها، ويستعيد ذكرياتها القائمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى، شعاره: ليتني فعلت،، وليتني تركت، وأنني فعلت كذا لكان كذا، وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري وأين من «ليت»؟ إن «ليتاً» وإن «لو» غناء
ولذا ينصح الأطباء النفسانيون والمرشدون الاجتماعيون،
ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش

(1) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، ص: 291-295.

(2) الوسطية في القرآن الكريم، ص: 346.

في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيب . ولك الساعة التي أنت فيها وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويراً بديعاً لطلبته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع كثير من الطلبة . . أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً. وكذلك الحال مع الماضي: فعندما يتتابكم القلق لأمر حدث في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!

وقد نقل هذا التصوير «دیل کارینجی» في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئاً تماماً، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو يصيبك بقرحة في المعدة⁽¹⁾.

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، وينشرون المنشور، ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلبون حسرة ما مضى، وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار السقيمة هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 97، دع القلق، ص: 173.

يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاء الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم⁽¹⁾.

إن شعار المؤمن دائماً: قدر الله وما شاء فعل الحمد لله على كل حال، وبهذا لا يأس على ما فات ولا يحيا في خضم الأليم من الذكريات وحسبه أن يتلو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

وقال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽²⁾.

فقد أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه سواء في دينه أم دنياه، والاستعانة بالله على ذلك فهو الذي يهيئ له الأسباب، ويزيل من طريقه العوائق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

وقال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده
ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به في الإعفاء من المسؤولية، وقديماً قيل: من دلائل العجز كثرة

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 97.

(2) مسلم رقم 2664.

الإحالة على المقادير، وحديثاً قال الشاعر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، أما المسلم القوي يعتقد أنه قدر الله الذي لا يغلب وقضاؤه الذي لا يرد، وقد روي أن بعض الصحابة . في زمن الفتوح الإسلامية . سأله أحد قادة الفرس: من أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا⁽¹⁾.

إن من وصايا رسول الله ﷺ للمسلم إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها - وما أكثرها - ألا يسلم نفسه للتحسر والأسى على ما فاته، فيصبح ويمسي، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أنني فعلت كذا لكان كذا على سبيل التحسر والتمني، ويجتر الذكريات الحزينة، بل أمره أن يرد الأمر هذا إلى قدر الله، ويسلم أمره وقضائه قائلاً: قدر الله وما شاء الله فعل، معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، وليتجه . بعد ذلك . للمستقبل ويعمل ويبني وينتج، لا إلى «اللؤلؤة» التي يقول فيها: «لو أنني فعلت، ولو أنني تركت» فإن «لو» هذه «لو» المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان، وعمله ليس وراء إلا الضياع والخسران⁽²⁾.

9. الخوف والحذر من الله:

فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَهُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] .

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 100.

(2) المصدر نفسه، ص: 101.

فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضره كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائمة للاستقامة والإكثار من الصالحات ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد⁽¹⁾.

10 . الخلاص من الشرك :

لا يتم توحيد الله إلا لمن أقر أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المعذبين بالقدر لم يوحّدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك، فالمؤمن بالقدر يُقر بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً⁽²⁾.

11 . الاستقامة :

والإيمان بالقدر من أكبر العوامل التي تكون سبباً في استقامة المسلم وخاصة في معاملته للآخرين، فحين يقصر في حقه أحد أو يسيء إليه، أو يرد إحسانه بالإساءة أو ينال من عرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح، لأنه يعلم أن ذلك مقدر، وهذا إنما يحسن إذا

(1) القضاء والقدر د. عمر الأشقر، ص: 111.

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

كان في حق نفسه، أما في حق الله فلا يجوز العفو ولا التعلل بالقدر، لأن القدر إنما يحتج به في المصائب لا في المعاييب⁽¹⁾.

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء لا تبطره النعمة، ولا تيشه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْتَمِرٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قُلُوبَنَا كَآتٍ مِّن قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ قَبْلِي عَلَيْهِمْ وَءَايَاتُنَا مِمَّا كُنُوزَ مَا إِنَّ مَفَاحِشَهُمْ لَنُتَوَّأ بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْبَارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 76 - 78].

ويكون المؤمن بالقدر على الاستقامة في حالة السراء والضراء⁽²⁾.

12 - القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات:

الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لأنه هو الذي

(1) القضاء والقدر للمحمود، ص: 457.

(2) القضاء والقدر للأشقر، ص: 110.

رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور، وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شيء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله، لأن الله هو الذي يقسم الأرزاق فيعطي ويمنع وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه ﷻ لخلقه⁽¹⁾.

قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمور الدنيا، لأنه إن كان. أي هذا الرجل. من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة وإن كان. هذا الرجل. من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا، وهو يصير إلى النار⁽²⁾.

فالحسد يحرق صاحبه، والمحسود قد يُصابُ بالعين إن كانت العين خبيثة لأن النبي ﷺ يقول: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، سبقته العين»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً»⁽⁴⁾.

وعلاج الحسد بالرضى بالقضاء والقدر، وتارة بالزهد في

(1) القضاء والقدر للمحمود، ص: 453.

(2) مختصر منهاج القاصدين، ص: 169.

(3) مسلم، رقم 2188.

(4) البخاري رقم 6065، مسلم رقم 2559.

الدنيا، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته⁽¹⁾. يعني: إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاكمة حاسدة أو إلى أفعال حاكمة حاسدة لا يضره ما تحدث به النفس أحياناً، فالنفس قد جبلت على مثل هذا⁽²⁾.

فالذي يؤمن بالقدر يحمل قلباً نظيفاً طاهراً من الغل والحقد والحسد والغش والضعينة لإخوانه، لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقيناً أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله، فهو يحب لأخيه النعمة ويتضرع إلى الله ﷻ الذي رزق أخاه أن يرزقه بما رزق أخاه فهذه كلها أمراض القلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله ﷻ⁽³⁾، والمؤمن بالقدر يعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمه، فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغنى، ولو أفقره الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمه الله لأفسده ذلك ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ولو صح لأفسده ذلك فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة، فالله هو الحكيم الخبير، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها، فالله جل وعلا يقدر بحكمة وعلم⁽⁴⁾.

(1) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 273.

(2) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 273، مختصر منهاج القاصدين، ص: 169.
170.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان، ص: 268.

(4) المصدر نفسه، ص: 276.

13 - الاستعانة بالله :

ومن ثمار الإيمان بالقدر يعلم العبد يقيناً أن الأمر كله بيد الله خلقاً ومشينة وتقديراً وإيجاداً، فالمستعان على حصول المراد هو الله وحده دون غيره، ولهذا فهو يستعين بالله على حصول مراده، ولأمر ما كانت سورة الفاتحة تقرأ في كل صلاة، بل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، كما جاء في الحديث الشريف وفي هذه السورة الكريمة، قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] ، فإذا استعان بالله وياشر السبب وحصل المقصود فهذا من فضل الله، وإن لم يحصل المقصود لم ييأس المسلم فقد يكون في تأخير حصول المطلوب خير لا تعرف وجهه، فالله يعلم ونحن لا نعلم، وما نعلمه من حكمته تعالى شيء قليل للغاية بالنسبة لما لا نعرفه من هذه الحكمة وعليه . أي على المسلم . أن يجدد السعي مستعيناً بالله ولا يعجز عن ذلك ولا يقول لو إني فعلت كذا كان كذا، فإن هذا الكلام لا يفيد شيئاً وإنما يفتح باباً لعبث الشيطان⁽¹⁾.

14 - الاعتماد على الله وحده :

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يياشر الأسباب بيده ولكن اعتماده على الله وحده لا على السبب، وهكذا كان حال سيدنا محمد ﷺ، فقد اختفى ﷺ في الغار وهذا منه ﷺ مباشرة لسبب الخلاص من المشركين ولكن ما كان اعتماده في الخلاص من المشركين على هذا السبب . ولا على غيره من الأسباب . ولكن كان اعتماده على الله وحده، قال تعالى: ﴿ثَانِيكُنِ أَنْتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

(1) القضاء والقدر لليهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 30.

أَفْكَارٍ إِذْ يَكُونُ لِصَنِيعِهِ لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَنَّانٌ [التوبة: 40].

فثقتة ﷺ واطمئنانه وسكينته وأمله في الخلاص، إنما كان ذلك بسبب تلك المعية الخاصة المتأنية من اعتماده على الله لا بسبب الاختفاء بالغار، وفي معركة بدر بعد أن نظم ﷺ الجيش وباشر الأسباب المادية للمعركة، رجع إلى العرش المنصوب له يدعو ربه ويكثر من الدعاء لأنه يعلم ﷺ أن النصر بيد الله والاعتماد في تحصيله يجب أن يكون على الله لا على الأسباب التي باشرها وإن كان لابد من مباشرتها، وهذا هو التوكل الصحيح الذي هو من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر، ومن ثمرات التوكل كفاية الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]⁽¹⁾.

15 - الاعتراف بفضل الله :

والإيمان بالقدر يجعل موقف صاحبه عند فعل الحسنات موقفاً صحيحاً سليماً تترتب عليه طهارة قلبه من أرجاس كثيرة وبالتالي يستقيم سلوكه وتزكو أخلاقه، وتفصيل ذلك أن صاحب الإيمان بالقدر يشاهد القدر ويستحضره في ذهنه عند فعل الحسنات وعمل الصالحات وهذه المشاهدة تثمر في نفسه الاعتراف بأن ما صدر منه وهو بمحض فضل الله عليه ليس له فيه شيء، وهذا يؤدي بدوره إلى قمع نوازع الكبر والغرور والعجب بنفسه والمن على الناس ونحو ذلك من الأقدار القلبية، لأن هذه الأقدار إنما تكون في الإنسان لاعتقاده أن فيه من معاني الامتياز على غيره ما يدعوه إلى التكبر عليهم والعجب بنفسه والغرور ونحو ذلك، سواء كانت هذه المعاني

(1) القضاء والقدر لليهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 32.

أعمالاً صالحة أو عبادة أو فعل حسنات أو قوة أو علماً أو سلطاناً أو مالاً أو كثرة اتباع ونحو ذلك، فإذا شاهد القدر عند فعله الحسنات، أو عند حصول شيء مما ذكرنا في يده، وعلم أن ذلك كله من عند الله وحده وما حصل على يديه هو محض فضل الله عليه، زال منه العجب والكبر والغرور والمنة على الله وعلى الناس، وبالتالي تجره هذه المشاهدة وما يترتب عليها إلى حمد الله وشكره وهكذا يفعل المؤمنون.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَحَسْبُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]، وهداية الله للعبد تتضمن الأعمال الصالحة التي يعلمها، والعلم بالحقائق الدينية والعمل بها ونحو ذلك، كما أن مشاهدة القدر عند فعل الحسنات تفيد المسلم من ناحية أخرى هي استدامة افتقاره إلى الله وتصرفه بهذه الكيفية وثبته الدائم برحمة الله وطلب عفوهِ وعدم الالتفات إلى عمله، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الآخرة إنما يكون بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله، لأن عمله الطيب إنما هو محض فضل الله فلا يستحق به الجنة وإنما يستحقها بفضل آخر من الله تعالى وبهذا جاء في الحديث الشريف: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»⁽¹⁾.

لكن قد يقول بعض الناس قولكم منقوض بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمُورُ الْمُنْتَزَعَةِ أُرْسِلْتُمْ عَلَيْهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]، فدخل الجنة إنما يكون بالعمل فكيف تنفونه؟ أو تقللون من شأنه؟ والجواب أن الآية

(1) القضاء والقدر للبيهقي مقدمة عبد الكريم زيدان، ص: 33، البخاري (8/ 141)، مسلم (8/ 139).

الكريمة دلت على أن العمل سبب لدخول الجنة، فالباء في قوله تعالى ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السببية ونحن لا ننكر الأسباب، ولا كون العمل الصالح سبباً للجنة، الذي تتكلم فيه وننفيه أن يكون العمل عوضاً وثنماً مكافئاً لدخول الجنة، وهذا ما نفاه الحديث الشريف، فالباء في قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» هي باء المعاوضة والشمنية، كما في قول القائل اشتريت هذا القلم بدرهم، فالعمل ليس عوضاً ولا ثمناً لدخول الجنة، ولا يصلح أبداً أن يكون عوضاً لها. ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان نقول أن الإنسان لو عبد ربه عمره كله وأتى بالصالحات فأية نسبة بين ما قدم من عمل في عمره المحدود وبين نعيم الجنة الدائم الممدود؟ أية نسبة بين عمل في زمن يتناهى، هو عمر الإنسان، وبين نعيم في زمن لا يتناهى هو نعيم الجنة؟ فلا بد إذن من فضل الله ورحمته ليظفر المؤمن بالجنة، وهذا المعنى لا يمكن تحصيله وانصبغ النفس به إلا بالمشاهدة الدائمة للقدر عند فعل الخير والحسنات، وفائدة أخرى لمشاهدة القدر عند فعل الحسنات هي أن المسلم إذا فعل خيراً لغيره وهذا من الحسنات، قد تتحرك فيه نوازع المنة على الغير وحب الاستعلاء عليه والاستشراف إلى طلب العوض منه، فهذه النوازع تموت إذا شاهد القدر وهو يفعل الخير لغيره لأنه بهذه المشاهدة يعلم أنه واسطة فقط لإيصال ما قدره الله من خير لذلك الغير، فلا داعي إذن لأنه يَمُنُّ هو على هذا الغير أن يستعلي عليه أو يتطلع إلى العوض منه، أرايت لو أن سيداً أرسل خادمه بهدية إلى شخص أ يكون من حق الخادم أن يمن على المهدي إليه أو يستعلي عليه بهذه الهدية وهو محض واسطة لإيصالها إليه؟

وإذا كان صاحب الإيمان بالقدر لا يمن ولا يستعلي على من فعل له خيراً، فمن باب أولى أن لا يكون كذلك إذا لم يفعل له شيئاً، وبهذا المسلك الحميد من صاحب الإيمان بالقدر، أي يفعله الخير للناس دون منة أو استعلاء عليهم أو طلب العوض منهم يكون من الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا يُبْذِرُ مِنْكُمْ جَزْأَةً وَلَا شِكْرًا﴾ [الإنسان: 9].

16 - الاستغناء بالخالق عن الخلق :

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الاستغناء بالخالق عن المخلوق والحرص على رضى الله وحده ورجاؤه والخوف منه، والتوكل عليه والاستعانة به وتفويض الأمر إليه والانكسار بين يديه وتبليغ رسالات الله بدون وجل ولا تردد ولا خشية من أحد على وجه الأرض ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ لَا يَخْشَوْنَ لِمَدًّا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

وقال ﷺ: «من أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس»⁽¹⁾.

فالسعيد الذي لا يعنيه إلا رضا الله، ولا يعنيه الشر إطلاقاً، لا يلتفت إلى الخلق، لأنه على يقين أن رزقه بيد الخالق، لا بيد الخلق وأن قلوب الخلق لا تقبل إليه بالحب والبغض إلا بتقدير الخالق، فهذا لا يعلق قلبه بالمخلوقين لا بشنائهم، لا ببغضهم، ولا بدمتهم، ولا بحمدهم، بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله، فلا يعنيه إلا أن

(1) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 2311.

يقول: قال الله: قال رسوله بما يرضي الله سبحانه لا بما يُحصَلُ به رضا الناس⁽¹⁾، فمن قال لله لا يخشى في الله لومة لائم، بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، أسعده الله في الدنيا والآخرة⁽²⁾.

17 - الاعتراف بالذنب والمصارعة للمغفرة والتوبة:

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يشاهد نفسه عند فعل السيئات وارتكاب المنهيات ولا يحتج بالقدر على عصيانه لأنه لا حجة لأحد فيه، كما بيّنا، وإنما يرجع إلى نفسه ليوبخها من كبوتها حالاً كما ينهض من الوحل، إذا وقع فيه ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب، ويتوجه إلى الله بالاعتراف بالذنب بانكسار قلب، وبهذا كله علّمنا القرآن وضرب لنا الأمثال وقص علينا موقف أنبيائه الكرام في مثل هذه الأحوال، قال تعالى عن نبيه آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَرَوْى تَغْفِرْ لَنَا وَرَحْمَتًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصاص: 16].

وفي الحديث الشريف: سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»⁽³⁾، أو كما قال ﷺ: «أما من يشاهد القدر عند فعله السيئات محتجاً به دافعاً المسؤولية عن

(1) القضاء والقدر، محمد حسان، ص: 225.

(2) المصدر نفسه، ص: 225.

(3) صحيح البخاري رقم 6306.

نفسه فمثله مثل إبليس حيث قال كما أخبرنا الله عنه : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَيْنَا لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُفْوِينَهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39].

وكان عاقبته كما هو معروف الطرد من رحمة الله⁽¹⁾.

هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر وغيرها كثير:

- كأداة عبادة الله ﷻ، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه بالإيمان به، وقوة الإيمان، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه لا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك السبيل.

- الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30].

- الكرم، فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالي.

- إحسان الظن بالله قوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله.

- عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين المشعوذين والتمسح بآثرية القبور، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً.

- ومن ثمرات الإيمان بالقدر: السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.

(1) القضاء والقدر لليهقي، ص: 35.

- عدم اليأس من انتصار الحق: فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العقابة للمتقين وإن قدرة الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، لا يعرف إليه طريقاً مهماً احلولكت ظلمة الباطل.

- علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم⁽¹⁾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) الوسطية في القرآن الكريم، ص: 339-343.

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقدر في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالقدر»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليّ، فله الحمد والمنة، ما كان فيه من خطأ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختتم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشاعر:

إلهي لا تعذبني فلاني	مقر بالذي قد كان مني
ومالي حيلة إلا رجائي	وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا	وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها	عضضت أنامي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وأني لشر الناس إن لم تعف عني
((سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك
وأتوب إليك))

فهرس المحتويات

الإهداء	6
المقدمة	7
المبحث الأول: القضاء والقدر في اللغة والشرع	15
أولاً: القضاء والقدر لغة وشرعاً	15
3. المعنى الشرعي للقضاء والقدر	18
4 - الفرق بين القضاء والقدر	19
ثانياً: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر	20
ثالثاً: القصص القرآني والإيمان بالقدر	22
رابعاً: الأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر	30
خامساً: وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا	32
الوصية الأولى	32
الوصية الثانية: دعاء الاستخارة	33
الوصية الثالثة	35

39	سادساً: في عهد الخلفاء الراشدين
39	1 - أبو بكر <small>رضي الله عنه</small>
39	2 - عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small>
42	3 . علي بن أبي طالب <small>رضي الله عنه</small>
43	4 . عبد الله بن مسعود <small>رضي الله عنه</small>
43	5 . عبد الله بن عباس <small>رضي الله عنه</small>
44	6 . عبد الله بن عمر <small>رضي الله عنه</small>
44	7 . أبي بن كعب <small>رضي الله عنه</small>
45	8 . عبادة بن الصامت <small>رضي الله عنه</small>
45	9 . الحسن بن علي بن أبي طالب <small>رضي الله عنه</small>
45	10 . عمرو بن العاص <small>رضي الله عنه</small>
45	11 . أبو الدرداء <small>رضي الله عنه</small>
49	المبحث الثاني: مراتب القدر على أربع مراتب
49	أولاً: مرتبة العلم
52	- أدلة هذه المرتبة من السنة
54	ثانياً: مرتبة الكتابة
57	الأدلة من السنة

59	ثالثاً: مرتبة الإرادة والمشية
62	أدلة هذه المرتبة من السنة
67	رابعاً: مرتبة الخلق
70	أدلة هذه المرتبة من السنة
75	المبحث الثالث: التقادير الخمس وأنواع الإرادة
75	أولاً: التقادير الخمس
75	1 - التقدير الأزلي
76	2. تقدير يوم الميثاق
77	3. التقدير العمري
78	4. التقدير الحولي: في ليلة القدر
79	5. التقدير اليومي
81	ثانياً: أنواع الإرادة
81	1. الإرادة الكونية
87	2. الإرادة الشرعية
89	3. الفرق بين الإرادتين
90	4. المخلوقات مع كل من الإرادتين: تنقسم إلى أربعة
91	ثالثاً: كلام حسن لابن القيم في الكوني والشرعي

92	فالقضاء في كتاب الله نوعان
92	والحكم أيضاً نوعان
92	والإرادة نوعان
94	وأما الكتابة
101	المبحث الرابع: لا حول ولا قوة إلا بالله
101	أولاً: فضلها
104	ثانياً: معنى لا حول ولا قوة إلا بالله
107	ثالثاً: تضمنت لا حول ولا قوة إلا بالله
109	رابعاً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي
119	المبحث الخامس: الهداية والإضلال
119	أولاً: مراتب الهداية
119	1. الهداية العامة
120	2. هداية الإرشاد والدعوة والبيان
122	3. هدية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل
126	4. الهداية إلى طريق الجنة
126	ثانياً: أسباب الهداية: كثيرة منها
126	1. المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية

129	2 استعمال السمع والبصر والعقل
131	3 العلم
135	4 . الإيمان
139	5 . الإهداء
142	6 . الدعاء
143	7 . الاعتصام بالله
144	8 . الاتباع والطاعة
149	9 الخشية
150	10 . الإنابة
152	11 . البراء من الكافرين
153	12 . الجهاد
154	أ . جهاد النفس
155	ب . جهاد الشيطان مرتبتان
155	ج . جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب
155	س . جهاد الظلمة والفساق ثلاث مراتب
156	ثالثاً: الضلال ومراتبه
166	رابعاً: أسباب الضلال

1. عدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكير في آيات الله . . 166
2. الذنوب والمعاصي 168
- 3 اتباع الشيطان 169
- أ. الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم 170
- ب. تزيين الأعمال الباطلة والمحرمة 171
- ج. الوعود والأمانى الكاذبة 172
- ح. الاستهواء 173
- د. الموالاة 174
- س. الاستحواذ 174
4. الجهل وإتباع الظن 175
5. الجدل في الله وآياته بغير علم 177
6. الغفلة 177
7. التعصب 178
8. التقليد 179
9. الشك والريبة 184
10. الجحود 186
11. التأبى والعناد والتعنت 188

12 . الكبر	190
13 . حب الدنيا والاعتزاز بها واتخاذها لهواً	192
14 . اتباع الهوى	194
15 . الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين	198
16 . الكفر	198
17 . الغلو في الأنبياء والصالحين	203
18 . صحبة السوء والبيئة الفاسدة	204
19 . التشبه بالضالين	204
20 . الابتداع في الدين	205
المبحث السادس : سنة الله في الأخذ بالأسباب	209
أولاً : الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم	212
الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله ﷻ	219
أ . الدستور العادل	219
ب . المنهج التربوي للشعوب	220
ج . الاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير	221
د . فقهه في إحياء الشعوب	224
- الرحلة الأولى	224

225	- الرحلة الثانية
226	- الرحلة الثالثة
233	هـ - أخلاقه القيادية
236	للتمكنين لدين الله
240	أ . استخلاف الله تعالى لداود <small>عليه السلام</small>
241	ب . هبة من الله مباركة وفتح وإلهام
241	ج . ابتكار في صناعة الأسلحة
244	للتمكنين لدين الله
244	أ . بداية التمكين
245	في إدارة الدولة
249	كحاكم لدولة
253	ثانياً: الأسباب والتوكل
265	ثالثاً: الأسباب والمسببات
269	1 . تأثير السبب في المسبب
276	3 . الجزاء الأخرى والأسباب
279	5 . مراعاة صورة الأسباب في الخوارق
280	6 . تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله

7. الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع 281
8. إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم 282
9. منازعة الأقدار بالأقدار 284
- رابعاً: الدعاء والقدر 286
1. دلالة القرآن الكريم على ذلك 288
- مما يدل على تأثير الدعاء 289
- ب. دعاء أيوب عليه السلام 289
- ج. دعاء يونس عليه السلام 289
- د. دعاء زكريا عليه السلام 290
- هـ. في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله 291
- و. دعاء المؤمنين من الأمم السابقة 291
2. دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله 292
3. دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء 294
- المبحث السابع: العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء 297
- أولاً: الأصل في العقاب المماثلة 302
- ثانياً: الجزاء بجنس العمل في الدنيا 307
1. الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا . . 307

2. تسليط الظالم على مثله 308
3. استتصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه 308
4. نصر الله منوط بنصرته للدين والحق 309
5. سلب النعمة عمن منعها مستحقها 309
6. تيسير الله لمن يسر على عباده 311
7. الجزء بجنس العمل على مستوى الوسائل 312
- ومن الآيات الدالة على هذه المسألة 312
- ثالثاً: الجزء بجنس العمل في الآخرة 313
1. معاملة أهل الفضل بالفضل 314
- رابعاً: الجزء بجنس العمل بين العباد 317
1. الآيات التي وردت في القصاص 318
2. حد الحرابة والإفساد 319
3. من تطبيقات ذلك العصر النبوي 319
- المبحث الثامن: الحكمة والتحسين والتفبيح 321
- أولاً: الحكمة في أفعال الله وشرعه 321
1. الله الحكيم الحكم الحاكم 321
2. المراد بالحكمة 323

3. الحكمة الحاصلة من الشرائع 325
4. الأدلة الدالة على الحكمة 326
- أ. ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين 335
- ب. الشر لا ينسب إلى الله 336
- ثانياً: التحسين والتقبيح 340
- ثالثاً: فعل الأصالح، معنى الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق . . . 346
1. وجوب فعل الأصالح 346
- 2 معنى الاستطاعة 346
3. لا تكليف إلا بما يطاق 348
- المبحث التاسع: سنة الله في الآجال وقدرة الله 351
- أولاً: سنة الله في الآجال 351
- ثانياً: قدرة الله ﷻ 355
- ثالثاً: ثمار الإيمان بالقدر 358
1. الإقدام على عظام الأمور 358
- 2 القضاء على الكسل والتواكل 361
- 3 الثبات في مواجهة الطغيان 365
4. الصبر عند نزول المصائب 366

- 5 . الرضا والقناعة بما قسم الله 368
- 6 . العز في طلب الحوائج 370
- 7 . السكينة وراحة النفس وسكون القلب 371
- 8 . المؤمن لا يعيش بين «لو» و«ليت» 375
- 9 . الخوف والحذر من الله 378
- 10 . الخلاص من الشرك 379
- 11 . الاستقامة 379
- 12 - القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات 380
- 13 - الاستعانة بالله 383
- 14 - الاعتماد على الله وحده 383
- 15 - الاعتراف بفضل الله 384
- 16 - الاستغناء بالخالق عن الخلق 387
- 17 - الاعتراف بالذنب والمسارة للمغفرة والتوبة 388
- الخاتمة 391
- فهرس المحتويات 393

المؤلف في سطور

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (1383هـ/1963م).

- حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز. وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ/1414هـ . 1992/1993م).

- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام 1996م وكانت الرسالة العلمية: في الماجستير: «الوسطية في القرآن الكريم»، وأما الدكتوراه فكانت: «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم» عام 1999م.

- البريد الإلكتروني abumohamed2@maktoob.com



قال رسول الله ﷺ «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

سار الكاتب على هديهما لبيان ركن من أركان الإيمان وهو «الإيمان بالقدر». وقد ابتعد عن مناهج الفرق الكلامية والمذاهب الفلسفية وحرص على أن يبين ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من صفاء ووضوح في أصول الإيمان.

يستهدف هذا الكتاب مخاطبة العقول، وإحياء القلوب وتحريك الفطر، وربط الناس بالخالق العظيم وبيان ما يجب معرفته في القضاء والقدر والحكمة والتعليل فهو أسمى المقاصد، والإيمان به قطب رحي التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها.

فالعادل قوام الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، فالقادر والحكمة ظهر خلق الله وشرعه المبين.

ISBN 9953-85-249-9



9 789953 852492 9 00000



دار المعرفة
للطباعة والنشر

www.marefa.org